معهد الدراسات العليا الدينية واللغوية / النجف الأشرف

The Institute of Higher Education in Linguistics and Religious Studies

سلسلة البحوث التخصصية / ٦

من أسرار سومر

دراسة مقارنة بين رؤيتين

د. علاء السالم

٢٠٢٠ م

المحتويات

الإهداء..... ٥
مقدمة البحث..... ٧
(١) سومر حضارة وثقافة..... ١٣
١/١- سومر في الواجهة من جديد: ١٣
١/١/١- كيف عُثر على سومر المغيّبة تحت الثرى ؟..... ١٣
٢/١/١- حل رموز الخط المسماري السومري:..... ١٤
٢/١- حضارة سومر:..... ١٦
٣/١- سرّ القفزة الثقافية في سومر: ١٩
١/٣/١- تفسيرات للطفرة الثقافية السومرية:..... ١٩
٢/٣/١- الحقائق العلمية والدينية تحدّد سبب الطفرة الثقافية:..... ٢٤
٣/٣/١- شفرة "ذوي الرؤوس السود" في نصوص سومر:..... ٢٨
٤/١- أنبياء سومر: ٣١
١/٤/١- إدريس ونوح بين ملوك سومر:..... ٣١
٢/٤/١- ثبت الملوك السومريين: ٣٥
٥/١- رأي العلماء بنتاج سومر:..... ٣٨
١/٥/١- رأي علماء الآثار:..... ٣٩
٢/٥/١- رأي علماء الدين:..... ٤٠
(٢) الأصل الإلهي للدين السومري..... ٤٧
١/٢- الألوهية وخلق الكون في الدين السومري: ٤٩
١/١/٢- خلق الكون والإنسان: ٤٩
٢/١/٢- تعدد آلهة أم إله واحد ؟ ٥١
٣/٢/٢- هل الآلهة من عالمنا أم من عالم آخر؟ ٥٦
٢/٢- السومريون وحاكمية الله: ٦٠
هل يؤمن السومريون بالديمقراطية ؟..... ٦٥
٣/٢- قضايا من صميم الدين السومري: ٦٨
١/٣/٢- رضا الله ومحبته: ٦٩
٢/٣/٢- الذنوب سبب البلاء ولابد من شفاعة: ٧٠
٣/٣/٢- الخوف من المعبود والصلاة من أولى الواجبات الدينية:..... ٧٠
٤/٣/٢- الرؤى الصادقة: ٧٢
٥/٣/٢- استخارة الله والتوسم:..... ٧٣

٦/٣/٢- تقديم الأضاحي: ٧٥
٧/٣/٢- الاعتقاد بالموت والعالم الأسفل: ٧٥
٨/٣/٢- الاعتقاد بالحياة بعد الموت والجنة والجحيم: ٧٧
٩/٣/٢- شريعة عادلة: ٧٧
١٠/٣/٢- سبل الكمال والرقي الأخلاقي: ٧٩
(٣) الرمزية في ألواح سومر ٨٢
مأساة دموزي ورحلة جلجامش نموذجاً ٨٢
١/٣- أنانا ومأساة دموزي: ٨٣
١/١/٣- من تكون أنانا ومن هو دموزي ؟ ٨٤
٢/١/٣- الزواج المقدس: ٨٨
٣/١/٣- مأساة دموزي وطقوس العزاء: ٩٠
٤/١/٣- حقيقة أنانا ودموزي وفق رؤية أخرى: ٩٥
أولاً: أنانا - عشتار ٩٥
ثانياً: العالم الأسفل ٩٧
ثالثاً: دموزي - تموز ١٠٠
رابعاً: من يكون دموزي من بين خلفاء الله ؟ ١٠٢
٢/٣- جلجامش ورحلة الخلود: ١١٥
١/٢/٣- ملحمة جلجامش: ١١٦
٢/٢/٣- شخصية جلجامش: ١٢٠
٣/٢/٣- أحداث الملحمة بين رؤيتين: ١٢٢
١- هوية جلجامش: ١٢٢
٢- هل صدر من جلجامش ظلم واعتداء ؟ ١٢٤
٣- جلجامش ثلثاه إله وثلثه بشر: ١٢٧
٤- الصراع بين جلجامش وأنكيدو: ١٢٩
٥- رفض جلجامش الزواج من عشتار: ١٣٢
٦- موت أنكيدو أو تعثره في مسايرة رفيقه: ١٣٥
٧- رحلة جلجامش لطلب الخلود: ١٣٧
خاتمة البحث: ١٤٤
مصادر البحث ١٤٧

الإهداء

إلى أنبياء الله في سومر

مقدمة البحث

ناملولو:

"ناملولو" .. كلمة لا زلنا نستعملها في جنوب العراق كإرث نعتز به من أمهاتنا، نطلقها إذا ما أردنا أن يرقد الطفل لمنامه برغد وهناء في موقف إنساني يلائم حاله.

(ناملولو = الإنسانية) بلغة سومر.

الإنسانية - كمصطلح - بما تحويه من إدراك وسلوك يناسب حالنا كبشر، وردت في نصوص سومر كأول استعمال بشري لها على الأرض بحسب المختصين؛ والنص يحكي قصة أب حزين لأجل ولده:

[لأن قلبي قد امتلأ بالمتاعب منك، ابتعدتُ عنك، ولم أعر اهتماماً إلى مخاوفك وتذمرك. كنتُ خائفاً عليك - نعم كنت خائفاً عليك. ولأنك لا تنظر إلى إنسانيتك، اختطفتَ قلبي كما لو اختطفته ريح شريرة. إن تذمرك وضع نهايتي، لقد أوصلتني إلى نقطة الهلاك. ... إنني أقاسي العذاب بسببك أثناء الليل والنهار، أنت ضائع في الملذات ليلاً ونهاراً. لقد جمعتَ كثيراً من المال، وتوسعتَ طولاً وعرضاً، وكبرتَ وعرضت وقويت وانتفخت، إلا أن أقرباءك ينتظرون مصيرك السيئ وسيفرحون بسوء مصيرك لأنك لم تنظر إلى إنسانيتك] [1].

لو قدّر لهذا الأب السومري أن يمثل أمامي الآن لأخبرته أنّ حال أغلب أهل الأرض اليوم كحال ابنك قبل آلاف السنين إن لم يكن أسوأ منه بكثير.

---

١. انظر: صموئيل كريمر، السومريون: ٣٥٠، ترجمة: د. فيصل الوائلي.

لماذا البحث في سومر ؟

لا يستطيع الإنسان أن يعيش بمعزل عن ماضيه ولن يتمكن من إيجاد تفسير لواقع أمسيته ما لم يدرك مجريات فجره، وإذا ما أردت أن أشبّه عالمنا الذي نعيش فيه بـ "يوم"، وأردت معرفة الشمس فيه فتأملتها وقت الغروب فبماذا يمكن أن يوصف تأملي هذا إذا ما أغفلت وقت الشروق ؟!

النبتة الباسقة لا يمكن أن تستمر إن فُصلت عن أصلها والجذور. وليس ثمة شك في أنّ الحضارة الإنسانية اليوم بما وصلت إليه من تقدّم تبقى مدينة لأول حضارة عرفتها الإنسانية على هذه الأرض؛ حضارة "سومر " التي ازدهرت في جنوب العراق قبل آلاف السنين.

لم تكن قصة اختيار البحث مفاجئة بالنسبة لي، فمنذ فترة من الزمن وفكرة الكتابة عن "سومر" لا تبارحني؛ نتيجة توفر دواعي وأسباب عديدة أرى أنها أكثر من كافية للكتابة، منها:

١- الظلم الكبير الذي وقع على السومريين وعدم إنصافهم من قبل الكثير من العلماء والباحثين، سواء المختصين منهم بعلم الآثار والنصوص السومرية تحديداً، أو رجال الدين عموماً، بالرغم من اعتراف كبار الباحثين بأنّ "جميع إنجازات البشرية تستمد جذورها من بلاد ما بين النهرين" !

٢- اتصال الموضوع بالدين الإلهي، فنقاط التقاء المنظومة الدينية والأخلاقية السومرية مع الأديان السماوية الثلاثة - ورجوع الكثير من أصولها إلى سومر - كثيرة وباتت واضحة جداً كما سيتضح خلال البحث، ولا يمكن أن يتنكّر لهذا التشابه إلا جاهل. ومن جهة أخرى: لم يتوانَ الباحثون ورجال الدين في وصف أغلب نصوص سومر بالأساطير والخرافات ما شكّل بالنتيجة طعناً في الدين واعتبار منشأه أسطوري أرضي لا غير؛ وهي الشبهة التي يروّج لها الملحدون اليوم بقوة.

يقول عالم الآثار الأمريكي إدوارد كييرا Edward Kira، أثناء حفل إزاحة الستار عن أحد التماثيل في أمريكا: (في الوقت الراهن يتقوّض تأثير الدين تدريجياً كلما أعيرت الاكتشافات العلمية أهمية أكبر) [١].

٣- القراءة الخاطئة التي قدّمها الباحثون المختصون للكثير من النصوص السومرية كانت - هي الأخرى - دافعاً لي للبحث؛ خصوصاً بعد توفر قراءة جديدة لنصوص سومر غير معهودة في الساحة العلمية.

على أنّ الفهم الخاطئ للنصوص لا يعني عدم إنصاف السومريين وبخس نصوصهم حقها فحسب، ولكن يعني بخس الحقيقة نفسها حقها في الظهور للناس وبالتالي حرمانهم من معرفتها والتحلّي بمضامينها الراقية.

أضف إلى ذلك - وهو الأهم - عدم وضع الشخصيات العظيمة التي تدين لهم البشرية بما وصلت إليه من تطوّر، بل بكل ما لديها من خير، في مكانهم الذي يليق بهم فعلاً؛ خصوصاً وأنّ بعضهم وإن كان السومريون يتداولون اسمه في نصوصهم إلا أنّ زمنه لم يحن بعد، كما سيتضح في فقرات البحث.

لهذا، إنصافاً لهؤلاء الأماجد وعطائهم الإنساني الخالد، وللحقيقة المغيّبة، آثرت البحث في سومر ونصوصها المكتشفة في ألواح الطين في ثرى بلاد ما بين النهرين بعد أن قيّض الله الفرصة المناسبة بفضله.

البحث الذي بين أيديكم يقارن في وجهته الأساسية بين رؤيتين كما هو ظاهر من عنوانه؛ رؤية يمثّلها الباحثون والمختصون في الدراسات السومرية بما فيهم الملحدون كصفة غالبة بكل تأكيد، وأحياناً يمثلها رجال الدين، وعلى الطرف الآخر رؤية أخرى يمثلها دائماً ابن جنوب العراق "السيد أحمد الحسن" الذي انفرد بتقديم فهم غير معهود لنصوص سومر في كتابه "وهم الإلحاد".

---

١. ك. ماتفيف وأ. سازونوف، حضارة ما بين النهرين العريقة: ٩٢، ترجمة: د. حنا آدم.

بطبيعة الحال، لم يستقرأ البحث كل الأفكار والمسائل الواردة في النصوص السومرية، فالاستقصاء - كما هو معلوم - يحتاج إلى دراسة واسعة تنهض بها مؤسسة علمية مختصة، ولأن ما لا يدرك كله لا يترك ولحين تحقق هذا الأمل، اقتصرت هذه الدراسة على إثارة بعض المواضيع المهمة بحسب وجهة نظري، وكلّي أمل في أن تُحتسب خطوة مساهمة في فتح الباب لغيرها من الدراسات العلمية المفيدة والجدية في هذا المضمار المعرفي الهام.

سيجيب البحث على مجموعة من الأسئلة؛ بعضها مهم ومفصلي في الدراسات السومرية، منها:

١- ما هو سرُّ القفزة الثقافية والحضارية الحادّة التي شهدتها بلاد سومر في ألوف السنين الأخيرة قبل الميلاد ؟ وهل كان للأنبياء دور فيها، مَنْ وكيف ؟

٢- هل يمكن أن تمنح شفرة "ذوي الرؤوس السود" التي تكرّرت في نصوص سومر مفتاح الحل لما يعرف في علم السومريات بـ "المعضلة السومرية" ؟

٣- كيف نظر رجال الدين (من يعتقد منهم بالقرآن أو الكتاب المقدس) لثقافة سومر المنقوشة على ألواح الطين ؟ ولماذا يصرّ الملحدون على وصفها بالأساطير ؟

٤- هل للديانة السومرية أصل إلهي، ولماذا تعدّدت عندهم الآلهة بشكل كبير ؟ ما هي ملامح دينهم "عقيدة وتشريع وأخلاق" ؟

٥- على الجانب السياسي، هل يؤمن السومريون فعلاً بالديموقراطية كما يصوّر علماء السومريات ؟

٦- أخذ دموزي (تموز) من النصوص السومرية مساحة كبيرة جداً:

- لماذا ؟
- ما هي صفاته ومكانته ؟
- هل هو شخصية تاريخية أم أسطورية أم ماذا ؟

- لماذا تنوح عليه سومر آلاف السنين كل هذا النواح ؟
- مَنْ تكون أنانا (عشتار) التي أسلمته للقتل ؟

٧- جلجامش، هو الآخر أسر قلب "سومر" فهامت به حباً وعشقاً وفاض منها الهيام إلى العالم كله منذ آلاف السنين وحتى يوم الناس هذا:

- هل هو شخص تاريخي أم ملحمي أسطوري أم هناك تصور ثالث ؟
- ما هي صفاته ومكانته ؟
- كيف لنا أن نفهم مضامين ملحمته، هل كانت أدبية محضة أم دينية ؟
- هل كان يظلم رعيته حقاً كما يفهم الباحثون ؟
- هل طلب في أسفاره الشهرة والمجد ؟
- هل كان حقاً يبحث عن خلود بدني مادي في سفره الأخير، أم أن رحلته كانت طلباً لخلود من نوع آخر ؟

هذه الأسئلة وغيرها سيجد القارئ إجابتها في البحث.

بقي أن أنبّه إلى أني أحياناً استشهد بنص بابلي لذات الفكرة السومرية؛ والسبب يعود إلى أنه أكثر وضوحاً في إيصال المقصود، وما عند البابليين أصله سومري كما هو معلوم.

آمل أن يكون البحث كشف شيئاً "من أسرار سومر" كما هو اسمه، وأن أكون وفّقت وأنصفت الحقيقة وطلّابها غاية ما استطعت، وما بخست أحداً حقه، وأبقى دائماً أتمنى الخير للجميع، وما توفيقي إلا بالله.

علاء السالم
٢٧/ ٩/ ٢٠١٩
النجف الأشرف

(١)

سومر حضارة وثقافة

١/١- سومر في الواجهة من جديد:

لم يكن أحد يعرف شيئاً عن وجود السومريين وحضارتهم قبل قرن ونصف تقريباً، حتى إنّ العلماء والباحثين عن الآثار - في بداية تنقيبهم في بلاد ما بين النهرين - كانوا يبحثون عن آثار الآشوريين والبابليين فقط ولم يدر في خلد واحد منهم البحث عن السومريين، بل نفس اسم "سومر" قد امتحى من فكر الإنسان وذاكرته طوال أكثر من ألفي عام الأخيرة، بحسب صموئيل كريمر Samuel Kramer [١].

١/١/١- كيف عُثر على سومر المغيّبة تحت الثرى ؟

يرى د. طه باقر [٢] أنّ التنقيب عن حضارة وادي الرافدين لم يبدأ قبل منتصف القرن التاسع عشر، وبخصوص العثور على السومريين في جنوب العراق فإنّ القصة مرت بأطوار عديدة قبل الوصول إليهم، كان أول تلك الأطوار أخبار السيّاح والرحّالة التي كانت تصل الغرب، ثم طور تنقيبات الهواة وقناصل الدول الأجنبية في مدينة الموصل؛ وكان الاهتمام حينذاك منصباً على استخراج التماثيل والألواح الكبيرة ونقلها إلى متاحف أوروبا. وقد شهد هذا الطور من التنقيبات تنافساً قوياً على نهب الآثار العراقية في الموصل ثم امتد لاحقاً إلى جنوب العراق ولا سيما

---

١. أنظر: صموئيل كريمر، من ألواح سومر: ٢٢، ترجمة: طه باقر.
صموئيل نوح كريمر (١٨٩٧ - ١٩٩٠ م)، عالم آثار أمريكي وخبير عالمي مشهور بالدراسات السومرية.

٢. انظر: طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: ١٢٣ فما بعد.
د. طه باقر (١٩١٢ - ١٩٨٤ م)، عالم آثار ومؤرخ عراقي شهير، له إسهامات علمية عديدة.

التلول الأثرية المشهورة باسم "تلو" مركز دولة لجش السومرية. التي وضعت أمام الباحثين أولى نماذج الكتابات والفنون السومرية.

في عام ١٨٧٧ م دخلت جامعة "بنسلفانيا" الأمريكية على خط التحرّيات، فأرسلت بعثتها إلى مدينة "نفر" الشهيرة واستخرجت الألوف من ألواح الطين المهمة كان بينها ما هو مدوّن بالأدب السومري.

ومع بداية القرن العشرين بدأ طور التنقيبات الأثرية العلمية، ولم يعد عمل البعثات في هذا الطور يقتصر على استخراج الآثار والمنحوتات فحسب وإنما السير وفق أسلوب علمي رصين. البعثة في هذا الطور عبارة عن فريق علمي متكامل يتألف من المهندس المعماري والرسام والمصور ومسجل الآثار وقارئ النصوص والجيولوجي والأنثروبولوجي إضافة إلى رئيس البعثة المختص.

أما كيف تسلسلت الأدوار التاريخية والحضارية في سومر، وكيف حددت أزمانها، فهو أمر يتم عادة بالاعتماد على تسلسل الطبقات الأثرية والاستعانة بمعطيات بعض العلوم الطبيعية مثل تحديد عمر البقايا الجيولوجية واستخدام العناصر الكيميائية المشعّة، وكذلك الاستعانة بأثبات الملوك والسلالات الحاكمة في العراق القديم التي عثر عليها من بين الألواح الطينية، هذا باختصار ومن أراد التفصيل وشرح هذه الطرق فيمكنه الرجوع إلى البحوث المختصة [١].

٢/١/١- حل رموز الخط المسماري السومري:

وفق ما أوضح د. طه باقر [٢]، فقد نقل أوائل المنقبين نماذج من الكتابات المسمارية إلى أوروبا فحار فيها العلماء في بداية الأمر وظنوها ضرباً من الزخرفة، ولما كانت كتابة تنتهي علاماتها بما يشبه المسامير أو الأسافين سميت بالمسمارية (Cuneiform). ويرجع الفضل في المراحل الأولى إلى مجموعة من النصوص التي

١. انظر على سبيل المثال: طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: ١٥١ - ١٦٢.
٢. المصدر نفسه: ١٣٧ - ١٤٤.

استنسخها كارستن نيبور Carsten Niebuhr [١] عام ١٧٦٥ م، عُثر عليها في "برسيبوليس" وظنّها من كتابات الفرس الأخمينيين الذين كانوا يدونون مآثرهم باللغة الفارسية إضافة إلى لغتين أخريين هما البابلية والعيلامية.

اللغويون الأوربيون من جهتهم، كانوا عارفين بأسرار اللغة الفارسية القديمة وبعد جهود قاموا بها استطاعوا حل رموز الخط المسماري العيلامي والبابلي بالمقارنة بالخط المسماري الفارسي. من جانب آخر: بدا للباحثين الأوربيين أنّ أحد الخطوط هو نفسه المنقوش على ألواح الطين المنقولة من مدن العراق القديمة وبذلك فتح الباب أمام معرفة اللغة البابلية بخطها المسماري. لكن لا زالت الشكوك تساور الرأي العام الأوربي في صحة حل رموز الخط المسماري، فأجرت "الجمعية الآسيوية الملكية" في لندن اختباراً لأربعة من كبار الباحثين وأعطتهم نصاً مسمارياً واحداً وطلبت من كل واحد منهم أن يترجمه على انفراد، فظهرت النتائج متطابقة.

أما معرفة اللغة السومرية وحل رموزها فقد تأخرت عن معرفة اللغة البابلية، إذ وجد الباحثون أثناء قراءتهم للنصوص مفردات غريبة فصبّوا جهودهم لمعرفتها. ساعدهم في ذلك أنها كانت مدوّنة بالخط المسماري أيضاً، إضافة إلى عثورهم في مدن العراق القديمة على ألواح بالكتابة المسمارية كانت تعد بمثابة معاجم لشرح مفردات اللغة السومرية وتأدية أصواتها باللغة البابلية التي عرفوها وألمّوا بها، وهكذا شيئاً فشيئاً استطاعوا من فك رموز اللغة السومرية بخطها المسماري. وكان أول من سمّاها باسمها التاريخي "اللغة السومرية" هو يوليوس أوبرت Julius Albert [٢] عام ١٨٦٩ م، فإنه لما وجد أنّ من بين ألقاب ملوك العراق القديم هو اللقب الشهير: "ملك بلاد سومر وبلاد آكاد" استنتج أنّ اللغة الثانية (غير الأكادية) المجهولة هي اللغة السومرية وأنّ من تكلم بها هم السومريون.

١. كارستن نيبور (١٧٣٣ - ١٨١٥ م)، باحث دانيماركي في مجال الرياضيات والمساحة والخرائط.
٢. يوليوس أوبرت (١٨٢٥ - ١٩٠٥ م)، باحث لغوي فرنسي وعالم آشوريات كبير.

٢/١- حضارة سومر:

وصف د. كريمر حضارة سومر بأنها (مدنية من أقدم مدنيات الإنسان وأكثرها إبداعاً وخلقاً وذلك في الناحيتين الروحية والثقافية. لقد عرضت فيها جميع النواحي الأساسية لجهود الإنسان: الحكومة والسياسة، التربية والأدب، الفلسفة والأخلاق، القانون والعدالة، بل أيضاً الزراعة والطب) [١].

كانت المعايير الأخلاقية كالعدالة والإيثار من أهم مظاهر الحضارة في سومر؛ إذ ميّزت الإنسان المتحضّر عن السلوك الحيواني الذي كان سائداً قبل الحضارة. وأما على مستوى السلوك الاجتماعي فقد كان منظماً أيضاً (مثل إقامة الدولة والحكومة وتنظيم الزراعة ووضع تقويم زراعي وتنظيم الطب ووضع دستور الأدوية، والمهن الإدارية مثل تعيين رئيس بلدية، ضابط، سفير، مدير مكتبة... الخ) [٢].

في سومر شيّدت أولى المدن التي عرفتها الإنسانية، بنيت فيها الدور والمعابد "الزقورات" وأنشئت أنظمة معقدة للري تتألف من القنوات والحواجز والسدود وخزانات المياه [٣].

د. كريمر يرى - أيضاً - أنّ السومريين اخترعوا (كل العناصر الأولى التي قامت عليها حضارة الإنسان المكتوبة، وإلى جانب الكتابة السومرية، وهي أول كتابة في تاريخ البشرية، قدم السومريون أيضاً اختراعات واكتشافات أكثر أهمية مثل العجلة والمحراث الزراعي، وأوجدوا النظام العشري، وكذلك قسّموا محيط الدائرة إلى "٣٦٠" درجة والسنة إلى "٣٦٥" يوماً، ووضعوا أسس الرياضيات ومبادئ الهندسة، ورصدوا الأفلاك والمجرات والنجوم، وبنوا المعابد وأسسوا نظم الحكم والإدارة، ووضعوا صياغة للشرائع الدينية والدنيوية في القانون وتنظيم أمور الحياة) [٤].

---

١. صموئيل كريمر، من ألواح سومر: ١٥.

٢. انظر: أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ٣٣٨.

٣. انظر: صموئل كريمر، السومريون: ١٣٧.

٤. صموئيل كريمر - ولكشتاين، أنانا ملكة السماء والأرض: ٩، ترجمة: شاكر الحاج مخلف، مقدمة المترجم.

بحسب الباحثين الآثاريين، ففي منتصف الألف الرابع ق.م تقريباً أو بعده بقليل، أي قبل ما يزيد على خمسة آلاف عام، اهتدى السومريون إلى "الكتابة" على ألواح الطين، ولو كان هذا الإنجاز وحده لأمكن اعتباره بحق إنجاز حضاري عظيم يحسب للسومريين.

(وأبرز ما وصل إليه الإنسان من اختراعات نقلته إلى طور الحضارة الراقية هي التعدين ووسائل مواصلات سريعة واتساع الزراعة.... واختراعات مهمة لا حضارة بدونها مثل الكتابة) [١].

تمكّن السومريون من اختراع أمور عديدة ساهمت بتغيير مجرى التاريخ الإنساني كالمحراث الزراعي والعجلة والسفن الشراعية وغير ذلك [٢].

في نهاية الألف الثالث ق.م تمكّن طبيب سومري من تدوين أثمن وصفاته العلاجية ليستعملها طلابه وزملاؤه. وكانت (هذه الوثيقة الطينية، التي هي أقدم كتاب موجز في الطب معروف لدى الإنسان، بقيت مطمورة في خرائب مدينة "نفر" طوال أكثر من أربعة آلاف عام) [٣].

عثر في مدينة "نفر" أيضاً على لوح طيني يعود لعام ١٧٠٠ ق.م يتضمن مبادئ الزراعة فيه إرشادات فلاح لابنه [٤].

اهتمت بلاد سومر بالتعليم والمدارس التي يحضرها الطلاب من شروق الشمس إلى غروبها يومياً، وكان نظام التعليم فيها مقسّم إلى ما هو شبيه بالعلمي القائم على أساس البحث، والأدبي الخاص بالإبداع والإنتاج الأدبي [٥].

---

١. طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: ٨٠.

٢. انظر: صموئيل كريمر، السومريون: ٤١٦.

٣. صموئيل كريمر، من ألواح سومر: ١٢٩.

٤. انظر: المصدر نفسه: ١٣٩.

٥. انظر: المصدر نفسه: ٤٨.

عرفت سومر - كذلك - سنَّ القوانين ووجود المحاكم القضائية التي تتألف عادة من هيئات قضائية (ثلاثة أو أربعة قضاة) للبت في القضية الواحدة، وكان لسير المحاكمة إجراءات معينة بدءاً من إقامة الدعوى مروراً بالإجراءات الخاصة التي تليها كإقامة البينة والشهود وغير ذلك من تفاصيل [١].

وبخصوص النتاج الصناعي والمهن التي كانت منتشرة بين السومريين، فقد كان لديهم (مدرس، طبيب، كاتب، معمار، فران، قصاب، طباخ، صناعة القصب، صناعة الفخار، صناعة الأحجار وقطعها، نجار، صناعة أدوات الوزن، صناعة القوارب، خياط، وصناعة واستعمال الأدوات الهندسية المعقدة كالمسطرة المنزلقة للفلك، صناعة المعادن مثل البرونز، صناعة الجلود، صناعة المنشار والإزميل والمطرقة والقوس والمسمار والدبوس والخواتم والمعول والفأس والسكين ورؤوس السهام والسيوف والدروع والغراء والحقائب وعربات الحرب والأحذية، وصناعة العجلة، صناعة الري وشق القنوات المائية، صناعة القير وتبليط الشوارع ويوجد إلى الآن شارع الموكب في مدينة بابل الأثرية وهو مبلط بالقير السومري قبل آلاف السنين ويرجع تاريخه إلى ما قبل الميلاد) [٢].

من جهته، يرى د. كريمر أنّ الغالبية العظمى من السومريين كانوا (من المزارعين وأصحاب الماشية والملاحين وصيادي السمك والتجار والكتاب والأطباء والمهندسين والبنّائين والنجارين والحدادين والصاغة والفخاريين.... وكان أنشط الحرفيين والصناع يبيعون مصنوعاتهم اليدوية في سوق المدينة الحر ويأخذون الثمن إما نوعاً أو بال "نقود" التي كانت عادة حلقة أو خاتماً من الفضة بوزن قياسي. وكان التجار يتعاطون تجارة مزدهرة من مدينة إلى أخرى ومع دول مجاورة عن طريق البر والبحر) [٣].

كان لدى السومريين - أيضاً - منظومة دينية متكاملة على المستوى العقائدي والتشريعي كما سيتضح لاحقاً. وبخصوص الجانب الروحي والأخلاقي فقد كشفت

---

١. انظر: صموئيل كريمر، السومريون: ١١٥ فما بعد.

٢. أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ٣٤٣.

٣. صموئيل كريمر، السومريون: ١٠١.

(الوثائق على أنّ السومريين كانوا يقدّرون ويعتزون بالخير والصدق والقانون والنظام والعدل والحرية والحكمة والمعرفة والإخلاص، وباختصار، كانوا يقدرون جميع الفضائل والسجايا التي يرغب فيها الإنسان أكثر من كل شيء آخر) [١].

والسؤال المهم الذي يُطرح بقوة: ما هو سر كل هذا النتاج الثقافي والحضاري الهائل - كما رأينا - الذي حصل فجأة في بلاد سومر قبل آلاف السنين ؟

٣/١- سرّ القفزة الثقافية في سومر:

حسم العلم أخيراً موضوع أولى الحضارات الإنسانية، فـ "سومر" بنظر العلماء الآن مهد الحضارة الأولى، فلم يكن قبل السومريين حضارة وتمدّن، ومع السومريين انعطف التاريخ لتشهد الأرض وجهاً آخر للإنسان لم يكن معهوداً من ذي قبل.

(لم تكن نواميس الحضارة وأصولها موجودة قبل السومريين إلا بالشكل البدائي لبعضها، والذي لم يكن قد تبلور أو وصل إلى حد الإنجاز النوعي المؤثر) [٢].

إنها - إذن - قفزة ثقافية بحاجة إلى تفسير يبرّر ظهورها الفجائي (غير المسبوق) في بلاد ما بين النهرين.

١/٣/١- تفسيرات للطفرة الثقافية السومرية:

لتفسير القفزة الثقافية في بلاد سومر، توجد محاولتين طرحهما بعض العلماء:

المحاولة الأولى:

محاولة بعض الملحدين (أو جلهم) بإرجاعها القفزة الثقافية إلى عوامل طبيعية وخبرات تراكمية بشرية بدأت بصورة بدائية متخلّفة ثم تطورت شيئاً فشيئاً.

---

١. المصدر نفسه: ٣٨٠.

٢- خزعل الماجدي، متون سومر: ١١.

وهذا الطرح لا يمكن قبوله؛ لعدة أسباب:

١- إنّ أغلب الباحثين المختصين يرون أنّ ما شهدته بلاد سومر قفزة حادة وانقلاباً غير مسبوق، منهم:

• د. طه باقر حيث أوضح (أنّ انقلاباً خطيراً حدث في ذلك العصر - العصر الحجري الحديث - في حياة الإنسان باهتدائه إلى الزراعة وتدجين الحيوانات ..... والحقيقة إن هذا الحادث الخطير وما قد نتج عنه من تطور في الحياة الاجتماعية قد مهد السبيل لنشوء الحضارة الناضجة في الأطوار التي عقبت العصر الحجري الحديث) [١].

واضح أنّ ما أسماه د. طه باقر بـ "الانقلاب الخطير" لم يسبقه تطور تدريجي. نعم، التطور حصل بعده للسير نحو بلوغ مستوى ناضج من الحضارة لاحقاً.

• الباحثان الروسيان قسطنطين ماتفيف kostantin Matveev [٢] وزميله سازونوف Sazonov، حيث صرّحا أنّ المكتشفات الأثرية تتحدث (عن وجود قفزة ثقافية حادّة في النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد. ويفسرون ذلك بوصول شعب إلى هناك، حيوي ذو مستوى رفيع من التطور من المتوقع أنه السومريون. وقد عثر على الدلائل الأولى لوجودهم عند التنقيب في أبعد المدن إلى الجنوب وهي مدينة أريدو. ومن هنا انطلقت الثقافة السومرية بالانتشار في الاتجاه المعاكس لجريان الفرات ودجلة، وقد وضعت بصماتها على مساحات شاسعة بين هذين النهرين ولمدة ثلاثة آلاف سنة تقريباً) [٣].

٢- على مستوى الجيولوجيا وعلم الآثار، ليس هناك ما يؤشّر إلى وجود تدرّج تطوري مر به الإنسان قبل حضارة سومر بحيث شكّل للسومريين تراكماً معرفياً وإرثاً شيّدوا فوقه حضارتهم، خصوصاً وأنّ نتاجاً مثل نتاج سومر سيحتاج - لو قُدّر له أن

---

١. طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: ٤٨.

٢. قسطنطين بيتروفيج ماتفيف (١٩٣٤ - ٢٠٠٨ م)، خبير روسي في الدراسات الشرقية والآشورية.

٣. ك. ماتفيف وأ. سازونوف، حضارة ما بين النهرين العريقة: ٥٤.

يكون خاضعاً لسنة التطور البشري - إلى عشرات آلاف السنين كحد أدنى لحصوله، ما يعني ضرورة توفر المعطيات والمعلومات الأثرية والجيولوجية بشكل واضح وكبير، لكن شيئاً من هذا غير موجود على الأرض.

٣- إنّ بعض نتاج السومريين ما لا يمكن إخضاعه لسنة التطور البشري نهائياً، كبعض المعارف الإلهية والقيم والمثل الأخلاقية العليا التي تأباها جينة الإنسان الأنانية وطبيعته الغريزية كالإيثار والعدل والتضحية دون مقابل، الأمر الذي يؤكد دخول شيء جديد في حياة الإنسان السومري.

٤- على خلاف ما افترضه الملحدون، فإنّ السومريين أنفسهم - وفق الوارد في نصوصهم- يوضحون أنهم ورثوا ما عندهم من حضارة وثقافة من أسلافهم ولم يكونوا بدائيين (كما يفترض أصحاب السير التطوري لحضارة سومر)، بل ويصفون حضارة أسلافهم بالأكثر رقيّاً،

(وإذا كانت مسألة تطور الحضارة والثقافة السومرية عن ثقافة متخلفة مجرد فرضيات بلا دليل فالأولى بمن يدعي البحث العلمي أن يقبل معطيات جاءت من السومريين أنفسهم من أنّ حضارتهم وثقافتهم ورثوها عن حضارة وثقافة راقية قبلهم، فلم يكن أسلاف السومريين متخلفين ثقافياً وحضارياً عن السومريين أنفسهم. نعم، ربما لم تصل ثقافتهم بخط أيديهم كالسومريين لقلتهم خصوصاً في مهد الإنسانية الآدمية ولأسباب أخرى كثيرة منها: الطوفان والظروف الطبيعية وعدم توفر الإمكانات المادية التي توفرت للسومريين لنقل حضارتهم وثقافتهم بخط أيديهم، هذا مع أن السومريين في كثير من الأحيان ما هم إلا ناقلين لثقافة وحضارة من سبقهم فنجدهم يقرأون قصة الطوفان ونوح (عليه السلام) في ملحمة جلجامش، ونجدهم يمدحون ثقافة أسلافهم كما في ملحمة ايرنمكار وأرض أرتا) [١].

نقل د. كريمر وصف السومريين لعصر أسلافهم ونعتهم له بـ "الذهبي":

١. أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ٣٤٤.

(في الأدب السومري نرى أول تصور للإنسان عن العصر الذهبي مدوّناً في لوح من الطين. ...

وفي غابر الأزمان كانت بلاد "شوبُر" و"هَمَازى"،
وبلاد سومر الكثيرة الألسنة، البلد العظيم ذو النواميس المقدسة الخاصة بالامارة،
وبلاد "أورى"، البلاد التي احتوت كل ما هو لائق،
وبلاد "مارتو"، كانت آمنة مطمئنة،
وجميع الكون والناس في وحدة وألفة،
حيث كان الجميع يمجدون "أنليل"، بلسان واحد ...") [١].

وليس كريمر وحده من نقل عن السومريين اعتقادهم بأنهم ورثة عصر ذهبي وحضارة راقية، بل هناك غيره من الباحثين نقل ذلك أيضاً، وأضاف أنهم يعتقدون بأنّ أصل حضارتهم سماوي إلهي:

(وهكذا - وحسب رأي البابليين - لم يتوصل البشر إلى ما يفرق بينهم وبين الحيوان من حراثة الحقول وتشييد المدن بالبحث والتنقيب ولا بالتجارب والجهود المختلفة ولا بالتفاعل. لقد جاءهم العلم دفعة واحدة من قبل الآلهة) [٢].

إصرار منظري الإلحاد على اعتبار حضارة سومر نتاجاً تطورياً لثقافة بدائية ومتخلفة أرضية كانت قبلها ما هو إلا عناد ومخالفة صريحة منهم لحقائق علمية ثابتة؛ فلقد وصلتنا كتابات السومريين (بخط أيديهم بأنّ حضارتهم وثقافتهم وعلمهم إنما ورثوه ممن سبقهم ويقولون عن هؤلاء السابقين: إنهم أكثر خلقاً وعلماً، وفوق كل هذا يقدمون لنا القصة كاملة ويغلقون الباب على التخرّصات الإلحادية فيبيّنون أنّ أصل هذا العلم والثقافة والحضارة هو السماء والإله، فكيف يريد الملحدون من إنسان عاقل يحترم عقله يلقي كل هذه الحقائق العلمية خلف ظهره ويلهث وراء سرابهم الذي لن يوصله إلى أي حقيقة علمية بل مجرد أوهام مبنية على أهواء فقط، ورفض وتعنت لحقائق علمية آثارية ثابتة لا لبس فيها أبداً؛ لأنها مخطوطات بأيد

١. صموئيل كريمر، من ألواح سومر: ٣٧٩ - ٣٨٠.
٢. شارل فيروللو، أساطير بابل وكنعان: ٢٢ - ٢٣، تعريب: ماجد خيربك.

أسلافنا في بلاد سومر وأكاد، وهم مهد الإنسانية الآدمية ومهد الحضارة الإنسانية الآدمية أيضاً، ...) [١].

إذن، لا يمكن اعتبار الحضارة السومرية متطورة عن حضارة وثقافة بدائية سبقتها، وما يقال بشأن ذلك مجرد فرضيات غير ثابتة علمياً.

المحاولة الثانية:

ذهب بعض الباحثين إلى أنّ السومريين هم نتاج عملية تلاقح تم بين كائنات فضائية نزلت إلى الأرض وبين "الهومو اركتس Homo Erectus"، فكانت النتيجة ولادة الإنسان العاقل "الهومو سابينس Homo Sapiens" الذي استطاع بناء أول حضارة إنسانية في بلاد سومر. فسبب طفرة السومريين الثقافية - وفق هذه الرؤية - هو ما وصلهم من معلومات من هذه المخلوقات الفضائية !

لكن هذه الأطروحة التي أشار لها الباحث زكريا سيتشن Zecharia Sitchin [٢] في كتابه "الكوكب الثاني عشر The ١٢th Planet" المنشور في عام ١٩٧٦ م، استندت إلى معطيات وأدلة غير ناهضة علمياً، كما أنها غير قادرة على إجابة النقد العلمي الموجه لها، إضافة إلى مخالفتها لحقائق علمية واضحة كمعارضتها مع علم الأحياء التطوري [٣].

وبهذا، يبقى السؤال قائماً: كيف حصلت القفزة الثقافية والحضارية عند السومريين بشكل حاد ومفاجئ ؟ كيف تمكّن السومريون وهم أفراد ينتمون علمياً إلى صنف الإنسان العاقل (الهومو سابينس) من أن يصبحوا بهذا المستوى الفكري الراقي دينياً وأخلاقياً وعلمياً وسياسياً وصناعياً وزراعياً وغير ذلك ؟!

(إذن، فالسومريون (الأكاديون) قوم ظهرت ثقافتهم فجأة دون مقدمات، وهي ثقافة راقية جداً ومميزة، وهذه القفزة الحضارية والثقافية الواضحة للسومريين

---

١. أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ٣٤٦.

٢. زكريا سيتشن (١٩٢٠ - ٢٠١٠ م)، كاتب أمريكي الجنسية من أصل روسي.

٣. انظر: أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ٣٠٧ - ٣٠٨.

تمثل مؤشراً واضحاً على دخول شيء جديد في المعادلة جعل هذا الموجود - الإنسان - ينتقل من التعامل الأناني الحيواني الظالم إلى الرغبة في التعامل الأخلاقي، العادل، الإيثاري، الإنساني، هذا بغض النظر عن بنائه الحضارة المادية) [١].

٢/٣/١- الحقائق العلمية والدينية تحدّد سبب الطفرة الثقافية:

السبب المنطقي - الذي تؤيده الحقائق العلمية والدينية معاً - لتفسير الطفرة الثقافية الحاصلة في جنوب العراق قبل آلاف السنين، هو دخول "الدين" والعلم الذي بثّه أنبياء الله بين أقوامهم على الخط، ابتداءً بآدم (عليه السلام) ثم من تلاه من ولده الصالحين الذين بعثهم الله لتلك الأقوام وصولاً إلى نوح (عليه السلام) الذي ورد ذكره كثيراً في الألواح والرقم الطينية باعتبار أنه أبو البشرية الثاني بعد الطوفان؛ الذي أعقبه استيطان السومريين الأوائل في منطقة جنوب العراق.

(التفسير الوحيد المعقول لهذا الأمر والذي تؤيده المكتشفات الآثارية هو دخول الدين في المعادلة، فالتفسير الديني لهذه النقلة الحضارية هو فقط الصحيح والحقيقي والمؤيد بالآثار التي أكدت أنّ هذه القيم جاء بها الدين أو آدم والأنبياء، فنفس آدم (عليه السلام) لما اتصلت بهذا الجسم المادي ذي البيولوجيا الأنانية دخلت هذه النفس في المعادلة ونقلت هذه النفس الطيبة من الإله القيم الأخلاقية العليا كالإيثار، وصدَّق بقية الناس أنّ هذه حقائق نتيجة أدلة لمسوها في أنفسهم وبدأوا بمحاربة الأنا بالإيثار وتحققت هذه النتيجة الطيبة المباركة التي صعق جمالها حتى الملحدين وأخذوا يترنمون بأنهم من الدعاة إليها ولا يسعهم أن يقولوا غير هذا رغم أن رائدها ومن أتى بها هو أعدى أعداء الملحدين وهو الدين الإلهي.

ولو جمعنا التاريخ الذي وصلنا عن السومريين في الألواح الطينية والآثار مع النص الديني فسنخرج بنتيجة أن السومريين أو سكنة بلاد ما بين النهرين ما هم إلا

---

١. أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ٣٣٤.

ورثة حضارة وثقافة آدم (عليه السلام) ونوح (عليه السلام) "اوتو- نبشتم" وإن كان في فترة موغلة في القدم عن التاريخ الذي وصلنا في الآثار والألواح الطينية) [١].

ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام) في تفسير قول الله تعالى: "وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا" أنه قال: (الأرضين والجبال والشعاب والأودية، ثم نظر إلى بساط تحته فقال: وهذا البساط مما علّمه) [٢].

وهذه بعض النصوص السومرية التي تربط مظاهر التحضّر كتأسيس المدن والبناء والزراعة والري والرعي والحكم بالسماء وبالآلهة:

١- [بدون انليل ، الجبل الكبير
لن تقام المدن ولن ترفع البيوت ،
ولن تبنى الحظائر ولن تشيد الزرائب ...] [٣].

٢- [من أجل حفر الأقنية ،
وتنظيف مجاري الري ،
وإرواء الأرياف الفسيحة ،
بالشادوف ،
واستعمال الماء الغزير لإرواء
الحقول والمروج
وضع الآلهة تحت تصرف البشر
الفأس والمعزق والقفة والمحراث
التي تحيي الأرض !
ومنذ ذلك الحين بدأ البشر
بجعل الشعير ينبت] [٤].

٣- [إنه كُلّا ، الذي يرتب بحذاقة
الآجرات المستخرجة من قالبها

---

١. أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ٣٣٤.
٢. انظر: المجلسي، بحار الأنوار: ١١/ ١٤٧. والآية في سورة البقرة: ٣١.
٣. أدونيس، ديوان الأساطير - الكتاب الأول: ٧٥، تعريب وتعليق: قاسم الشوّاف.
٤. أدونيس، ديوان الأساطير - الكتاب الثالث: ٤٦.

إلى كلّا عهد (انكي) بهذه الصناعة
ثم عمد بعد ذلك إلى شد حبل (البناء)
وخطط أساسات مستقيمة
وتلبية لإرادة مجمع (الآلهة)، رسم مخطط مسكن
وطلب أن تنفذ عليه عملية التطهير (الأولية)
ثم بعد ذلك قام الأمير العظيم بحفر الأساسات
وبنى عليها جدران الآجر ...
إنه موشداما البناء – العظيم، (بنّا) انليل،
إليه عهد انكي (بهذا الفن)، ...] [١].

٤- [انكي الإله الذي يقرر المصائر،
تدخل للتنفيذ
فجمع مياه جميع المناطق
ووزع مواضع الأماكن القابلة للسكن!
جلب بيديه المياه المحيية
التي سوف تنتج البذور الفائقة الخصوبة
جلب معه دجلة والفرات
وجعل المياه ترفدهما من كل صوب
نظف أقل الأقنية أهمية
وحتى إنه حفر مجاري الري!
نشر أنكي المبجل الحظائر والزرائب
معيناً لها الرعاة والبقارين
أسس في البلاد، المدن والقرى
وجعل فيها الرؤوس - السوداء تتكاثر
ولرعياتهم، منحهم مَلِكاً
نصّبه على رأسهم، كأمير لهم
وجعله يشع في كل مكان، مثل
نور لا ينطفئ ...] [٢].

١. أدونيس، ديوان الأساطير - الكتاب الثالث: ص١٨٠.
٢. أدونيس، ديوان الأساطير - الكتاب الثاني: ص٤٦.

٥- [بعد أن أنزلت الملكية من السماء ،
وبعد أن أنزل التاج والعرش الخاصان بالملكية من السماء ،
أكمل رسوم العبادات والنواميس الإلهية المقدسة ... ،
وأسس المدن الخمس في مواضع مطهرة ... ،
وسماها بأسمائها وخصصها كمراكز للطقوس والعبادات] [١].

النص الأخير يؤكد أنّ النواميس الإلهية (الجانب الثقافي والروحي لحضارة سومر) وتأسيس المدن (الجانب العمراني لحضارة سومر) لم يحصل إلا بعد نزول الملكية من السماء إلى الأرض، وقبل ذلك لم يكن شيء اسمه مدن وثقافة وتحضر.

والملاحظ أنّ هذه الملكية السماوية "خلافة الله في أرضه" هي نفسها التي ورد ذكرها، في نصوص السومريين، بأنها مُنحت لرجال معينين بأسمائهم كجلجامش ودموزي وزيوسدرا.

(وكان السومريون يعزون كل الفضل في الصفات الروحية السامية والفضائل الخلقية التي طوروها تدريجياً وبمشقة كبيرة، خلال قرون عديدة، من تجاربهم الاجتماعية والحضارية إلى الآلهة، فهي التي خططت لذلك بهذا الأسلوب وما كان على الإنسان إلا أن يخضع للأوامر الإلهية) [٢].

وفي ذات الوقت الذي يتحدث فيه السومريون - بحسب نصوصهم - عن الأصل السماوي والإلهي لحضارتهم وعن رقي حضارة أسلافهم، تؤكد نصوصهم من جهة أخرى على أنّ الزمن السابق على أسلافهم "الموغل في القدم" لم يكونوا يعرفون شيئاً ممّا كانوا هم وأسلافهم يعرفونه، الأمر الذي يؤكد الطفرة الثقافية والحضارية التي حصلت عندهم بسبب تدخل السماء بشكل واضح جداً، وهذا نص يوضح ذلك:

[كذلك ، فإنّ مخلوقات تلك الأزمنة الموغلة في القدم
لم يكونوا يعرفون أكل الخبز
ولا يعرفون تغطية أجسادهم بالكساء

١. صموئيل كريمر، من ألواح سومر: ٢٥٤.
٢. صموئيل كريمر، السومريون: ١٦٤.

كانوا يمضون ويعودون بكامل عريّهم
يتغذون بالأعشاب ، كما يفعل الخرفان
ولا يرتادون سوى مياه المناقع][١].

٣/٣/١- شفرة "ذوي الرؤوس السود" في نصوص سومر:

هل يمكن أن يكشف وصف "ذوي الرؤوس السود" أصل السومريين، ويفتح - بالتالي - أفق الحل لما يعرف عند الباحثين المختصين بـ "القضية السومرية"؛ القضية التي شغلت بالهم منذ اكتشافهم لغة السومريين وتمكنهم من حل رموز خطها المسماري.

(ومنذ ذلك الحين حتى يومنا هذا والتساؤل لا يزال يثار عن هذه اللغة وعن القوم الذين تكلموا بها. فمن كان أولئك السومريون ؟ هل كانوا أحد الأقوام الذين تحدروا من أصول قديمة واستوطنوا وادي الرافدين منذ عصور ما قبل التاريخ ؟ أو أنهم جاؤوا بهجرة من خارج القطر في فترة ما في أواخر تلك العصور ؟ وإذا كان الأمر كذلك فمن أين جاؤوا، أي أين كان مهدهم ومتى جاؤوا إلى العراق ؟

إنّ هذا النوع من التساؤل يعرف لدى الباحثين في حضارة وادي الرافدين بالقضية السومرية، وهي قضية كثر البحث والنقاش حولها وما زالت أبعد ما تكون عن الحل، لا سيما في الوضع الذي تعرض فيه أي مهد السومريين وأصلهم، فهي على هذا الوجه قضية نعتقد فيها أنها لا يمكن أن تحل في المدى القريب) [٢].

ليس د. طه باقر وحده يعترف بعجزه عن الحل، بل إنّ الرأي الرسمي لدى الباحثين المختصين في علم السومريات يعترف بذلك أيضاً، وأنّ كل ما هو مطروح في الساحة العلمية من أنّ السومريين يعود أصلهم إلى الهند أو القوقاز أو إيران وغير ذلك من أقوال هو مجرد فرضيات وتخمينات عارية عن الدليل تماماً.

---

١. أدونيس، ديوان الأساطير - الكتاب الثاني: ٥٠.

٢. طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: ٧٤.

من جانب آخر، فإنّ من يقرأ النصوص السومرية يجد وصف "ذوي الرؤوس السود" يتكرر فيها بكثرة، والمسألة - بعد هذا - بحاجة إلى تعليل حتماً. لكن هذه القضية شكلت- هي الأخرى - لغزاً بالنسبة للآثاريين لم يتمكنوا من حلّه أيضاً.

السيد أحمد الحسن من جهته، تمكّن من حل القضيتين معاً بشكل تلتقي عنده النصوص الدينية والسومرية والمعطيات العلمية، يقول في بيانه لقصة الخلق عند السومريين:

(البداية كانت لما اكتمل خلق الإنسان العاقل أو الهومو سابينس وهو كان أسود البشرة وجاء من أفريقيا إلى الوادي الخصب وهو يمثل بداية قصة آدم والاستخلاف، والذي يمثل الأصل الذي يرجع له السومريون، ولهذا فمن الطبيعي أن يعبر السومريون عن أسلافهم بعبارة ذوي الرؤوس السود:

"وبعد أن خلق آن وانليل وانكي وننخرساج ، القوم ذوي الرءوس السود".

وهذه العبارة التي تتكرر دائماً في النصوص السومرية كانت غير واضحة لمنقبي الآثار، وكانت تمثل لغزاً غير مفسَّر؛ فلماذا يطلق السومريون على أسلافهم هذا الاسم "ذوي الرؤوس السوداء"؟ والآن قد تبينت بوضوح، فالسبب هو أنّ الأسلاف جاءوا من أفريقيا ولون بشرة رؤوسهم أسود.

الخطوة الثانية في قصة الخلق السومرية هي الاستخلاف الإلهي لخليفة إنساني في الأرض:

"بعد أن أنزلت الملكية من السماء ،
وبعد أن أنزل التاج والعرش الخاصان بالملكية من السماء ،
أكمل رسوم العبادات والنواميس الالهية المقدسة".

وهي - كما هو واضح في النص السومري - تمثل قصة استخلاف آدم (عليه السلام) أو خليفة الله - الإنساني - الأول في الأرض التي وردت في الأديان الإلهية،

فالملكية نزلت من السماء أي تم تنصيب خليفة لله في الأرض ...) [١].

أما مسألة اصطفاء آدم وكونه الخليفة الإلهي الأول في الأرض فهذا أمر تقرّه الأديان جميعاً، وأما موطن الإنسان العاقل "الهوموسابينس" كان أفريقيا قبل أن يتركها ويهاجر إلى الوادي الخصب في عشرات آلاف السنين الأخيرة من تاريخ الأرض فهو أمر تقرّه معطيات العلم الحديث.

فتحت عنوان: "اكتشاف الموطن الأول للبشرية جمعاء في أفريقيا"، نشرت صحيفة "الاندبندنت عربية independent arabia" عام ٢٠١٩ م، مقالاً علمياً تضمن دراسات قام بها علماء الوراثة والجيولوجيا والفيزياء المناخية لتحديد موطن البشرية الأصلي، جاء فيه:

(حدّد العلماء أنّ موطن أجداد البشرية بأكملها يقع في وادٍ نهري خصب في شمال بوتسوانا في أفريقيا الجنوبيّة. إذ كشفت دراسة جديدة أن الإنسان الحديث "الإنسان العاقل" قد ظهر منذ ٢٠٠ ألف سنة في الأراضي الرطبة الشاسعة الواقعة جنوب نهر "زامبيزي" الذي كان مهداً للبشرية جمعاء. ...

وقد بدأ المناخ بالتغيّر في الفترة ما بين ١١٠ آلاف و ١٣٠ ألف سنة مضت، وشُقّتْ ممرات خصبة في هذا الوادي. للمرّة الأولى، بدأ السكان بالتفرق ما مهد الطريق أمام هجرة البشر الحديثين إلى خارج أفريقيا، وجميع أنحاء العالم في نهاية المطاف) [٢].

أما كيف استوطن السومريون الأوائل جنوب العراق بعد الوادي الخصب (الخليج الحالي)، فهو أمر حدث بعد الفيضان الكبير الذي أدّى إلى امتلاء الوادي الخصب بمياه البحر مكوّناً (الخليج الحالي)، عندما تمكّن نبي الله نوح (زيوسودرا) من النجاة بمن كان معه والنزوح إلى جنوب العراق والاستقرار هناك.

---

١. أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ٤٠٥.

٢. متاح على: https://bit.ly/٣bk١LC٧

(وعموماً، يمكننا اعتبار سكان هذا الوادي (الخليج الحالي) أصحاب أول حضارة إنسانية على وجه الأرض، وهم من بدأوا بتكوين القرى السومرية أو الاكادية في جنوب العراق التي سبقت الحضارة السومرية الاكادية التي وصلتنا، ولهذا يمكن أن نقول عنهم: إنهم السومريون الأوائل، أو هم أولئك الأجداد الذين نقرأ للسومريين كتاباتهم في الرقم الطينية وهم يفتخرون بهم وبحضارتهم وقيمهم الأخلاقية العليا) [١].

هذه هي القصة بإيجاز، وتفصيلها بأدلتها الدينية والعلمية يمكن مراجعتها في كتاب "وهم الإلحاد" للسيد أحمد الحسن.

٤/١- أنبياء سومر:

تأكيداً لدخول الدين والعلم الإلهي على خط الحضارة الإنسانية الأولى، والذي صار سبباً في القفزة الثقافية والحضارية لدى السومريين، فإنّ الحقائق والمعطيات الدينية والعلمية أكدت بوضوح وجود أنبياء الله بين السومريين وأسلافهم، ولم يكن حضورهم مجرد تواجد عادي بين الناس وإنما كان حضوراً فعّالاً بحيث كان لهم موقع الريادة والقيادة والتعليم والتقديس بين أقوامهم. هذا ما تكشفه النصوص السومرية الآثارية، وأما النصوص الدينية فالأمر فيها واضح دون أدنى شك.

١/٤/١- إدريس ونوح بين ملوك سومر:

بعض الباحثين [٢] أجرى مقارنة لإثبات وحدة الشخصية بين أنبياء الله الأوائل (آدم ومن تلاه) المذكورين في النصوص الدينية، وبين ملوك سومر وأسلافهم قبل الطوفان المذكورين في النصوص السومرية، وكحد أدنى يمكننا التركيز على سابع وعاشر الملوك المذكورين، فإنّ في قصيتهما وأعمالهما شبه تام بنبي الله إدريس ونوح (عليهما السلام).

---

١. أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ١١٧.

٢. كالبروفسور شارل فيروللو في كتابه "أساطير بابل وكنعان"، والدكتور خزعل الماجدي في كتابه "أنبياء سومريون".

يقول شارل فيروللو Charles Virlleaud [١] عن سابع الملوك المعلّمين قبل الطوفان:

(وهذا الملك الذي أودعته الآلهة العلم كان - كما مر - السابع من دولة ما قبل الطوفان. فهو يطابق حسب الترتيب الوراثي إلى "أخنوخ" "إدريس" الذي يشغل المرتبة السابعة من سلسلة آدم - سلسلة الأنبياء ما قبل الطوفان - ومن الملحوظ أنه لا يوجد أي اشتراك بين الاسمين مع أن أعمالهما واحدة تماماً. والحق يقال، إن النص التوراتي المتعلق بسابع الأنبياء "أخنوخ" موجز جداً قال: "وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه". وقد أصبح أخنوخ بطل حلقة من الأساطير جعلته مخترع الكتابة ومؤلف أول كتاب وموجد علم الكواكب والسيارات: علم الفلك وكل الفلكيات. فهو يبدو وكأنه "فيدورانكي". ونستطيع أن نتقبل بارتياح بأنّ أسطورة اليهود هذه ليست إلا نقلاً أو توسعاً للأسطورة الكلدانية التي هي أقدم. وبين بقية الملوك والأنبياء - أسلاف "إيفيدورانكي" و"أخنوخ" الستة وخلفائهم الثلاثة - صفات مشتركة، ولا يهمنا إلا الشخصية العاشرة التي عايشت الطوفان) [٢].

الشخصية العاشرة التي عايشت الطوفان من ولد آدم (عليه السلام) يعني بها نوح (عليه السلام)، كما أكد د. كريمر ذلك:

(ثم يأتي خبر "زيوسدرا" وهو نظير نوح التوراة، وقد وصف في الأسطورة بكونه ملكاً صالحاً تقياً يخشى الآلهة. وكان يتلهف شوقاً إلى الاتصال بالوحي الإلهي في الأحلام وفي تلاوة التعاويذ والأدعية ...) [٣].

[الملك "زيوسدرا"،
سجد أمام "آن" و"انليل"،
واصطفى "آن" و"انليل" زيوسدرا،
ووهباه الحياة مثل إله.
لقد أدخلا فيه النفس الخالد مثل إله،

---

١. شارل فيروللو (١٨٧٩ - ١٩٦٨ م)، باحث فرنسي في علم اللغات القديم.
٢. شارل فيروللو، أساطير بابل وكنعان: ٢٥ - ٢٦.
٣. صموئيل كريمر، من ألواح سومر: ٢٥٤ - ٢٥٥.

"زيوسدرا" ،
الملك الذي حافظ على الزرع والذي صان ذرية البشر ، ...] [١].

وصِفَ نوح (عليه السلام) بـ "الملك الذي حافظ على الزرع وصان ذرية البشر" باعتبار أنه أنقذ بعض الناس من الهلاك وحمل معه في سفينته البذور المهمة التي يحتاجها الإنسان في معيشته، فصار سبباً في استمرار حياة الإنسان، لهذا عُدَّ أبو البشرية الثاني بعد آدم (عليه السلام).

عمد البعض [٢] إلى إجراء مقارنة لاسم آخر الملوك السومريين قبل الطوفان بحسب ملحمتي "أتراحاسس" و"جلجامش"، والنتيجة التي انتهى لها أنّ آخر الملوك هو اتراحاسس (واجد، كثير الحكمة)، وبحسب ملحمة جلجامش هو أوتونبشتم (واجد الحياة، الخلود)، والمرادف له بالسومري زيوسدرا (ذو الحياة الطويلة، الخالدة).

صفة "الحياة الطويلة" التي منحت لـ (زيوسدرا السومري = اوتونبشتم البابلي) هي نفسها الممنوحة لنبي الله نوح (عليه السلام) في نصوص الكتب المقدسة لاحقاً، لذا كانت "وحدة الشخصية" كنتيجة انتهى لها البروفسوران كريمر وفيروللو وغيرهما من الباحثين تعد مؤكدة ولا غبار عليها؛ خصوصاً لمن لديه اطلاع على نصوص الأديان والنصوص السومرية.

وبالنسبة لأنبياء الله الذين كانوا في سومر بعد الطوفان، فيمكن الإشارة إلى إبراهيم (عليه السلام)، إذ كان موطنه مدينة "أور" السومرية [٣].

(إن أغلب الباحثين يتفقون على أنه بينما تحتوي قصة إبراهيم كما وردت في التوراة على الكثير مما هو أسطوري وخيالي، فإنها تحتوي أيضاً على بذرة مهمة من الحقيقة بما في ذلك ولادة إبراهيم في مدينة "أور" الكلدانية، التي ربما كانت حوالي ١٧٠٠ ق.م، وأخبار حياته مع عائلته هناك. وكانت "أور" احدى أهم المدن السومرية

---

١. المصدر نفسه: ٢٥٨.
٢. انظر: د. خزعل الماجدي، أنبياء سومريون: ٨٥ -٨٦.
٣. انظر: شارل فيروللو، أساطير بابل وكنعان: ١٩.

القديمة. بل كانت في الواقع عاصمة بلاد سومر في ثلاثة عهود مختلفة في تاريخ بلاد سومر. ... ومن الجائز جداً أن يكون لإبراهيم وآبائه صلة ما مع الإنتاج الأدبي السومري الذي كان يستنسخ أو يبتدع في مدرسة مدينتهم. وليس من المستحيل أبداً أن يكون هو وأفراد عائلته قد جلبوا معهم بعضاً من التقاليد والمعرفة السومرية إلى فلسطين) [١].

إذا اتضح هذا، فليس غريباً أن يكون هناك تشابه - بل وتطابق أحياناً - بين بعض ما ورد في النصوص السومرية وبين ما هو موجود لدى الأديان الإلهية الثلاثة اليهودية والمسيحية والإسلام، فهي جميعها إبراهيمية، كما في قصة آدم وحواء وقابيل وهابيل وطوفان نوح والخطيئة وجنة عدن وقصة نبي الله أيوب وقصة المنقذ والمخلص وغير ذلك، بل اعتبر البعض - محقاً - أنّ ما كان عند السومريين يمكن اعتباره الأصل الذي ترجع له جميع الديانات السماوية اللاحقة. بل ولا يمكن أن يكون غير هذا، فما تحدّث به آدم وإدريس ونوح وإبراهيم (عليهم السلام) وبثّوه بين أقوامهم (السومريين وأسلافهم) هو نفس ما سيتحدث به لاحقاً موسى وعيسى ومحمد (صلوات الله عليهم) بكل تأكيد؛ لأنهم جميعاً أنبياء الله وينهلون من مصدر واحد. وسيتضح لاحقاً أنّ الكثير من القصص والملاحم السومرية هي عبارة عن إخبارات غيبية تتحقق مستقبلاً.

(... من المؤكد آثارياً وتاريخياً ودينياً أنّ نوحاً وإبراهيم (عليهما السلام) منهم، فهم أصل الدين، ومنهم بدأ الدين في أول الزمان، ومنهم يبدأ في آخر الزمان) [٢].

نعم، قد يكون التحريف طال بعض النصوص والمعتقدات السومرية، بل هذا هو الأكيد خصوصاً في مثل حالة السومريين نتيجة تباعد الزمان بينهم وبين سلفهم الذين كانوا يتداولون القصص والتعاليم - التي بثها الرسل - شفاهة ولم تكن الكتابة قد اكتشفت بعد، ولما اكتشفت دونت تلك التعاليم بعد مضي سنين طويلة عليها، ولكن، كيفما كان، لا يخلو تراثهم من الحقيقة ولا أنّ التحريف طال كل شيء.

---

١. صموئيل كريمر، السومريون: ٤١٩.

٢. أحمد الحسن، مراسي مختارة في موانئ سومر وآكاد: ٩.

من ثمَّ، فالإنصاف العلمي يقتضي دراسة النصوص السومرية والبحث فيها وفرز الصحيح والأصيل منها عن المحرَّف. وصحيح أنّ مثل هذا الأمر لا يتسنّى لأي أحد، لكن من الصحيح أيضاً أنّ معاملتها بطريقة واحدة ورميها كلها في خانة الأساطير والخرافات، كما فعل كثير من الباحثين ومنهم رجال دين، لهو خطأ كبير وتبعاته خطيرة جداً كما سنرى.

٢/٤/١- ثبت الملوك السومريين:

ثبت الملوك السومريين، الذي يستند إليه الباحثون في تشخيص أسماء ملوك سومر قبل الطوفان وفترة حكمهم، يحدد سني حكم الملوك بفترات طويلة جداً، فمثلاً بحسب القائمة التي ترجمها ثوركيلد ياكوبسون Thorkild Jacobson [١] يأتي (ألوليم - a lu lim) في أول قائمة الملوك الذين حكموا بعد نزول الملوكية من السماء وكانت مدة حكمه ٢٨,٨٠٠ سنة. ثم حكم بعده (ألالكار - a lan gar) وكانت مدة حكمه ٣٦,٠٠٠ سنة، وبحسب ترجمة هربرت بلونديل Herbert Blundell [٢] فإنّ (زيوسودرا - Zi u sud ra) حكم ٣٦,٠٠٠ سنة وهكذا [٣]، الأمر الذي شكّل بنظر الباحثين مشكلة تستدعي علاجاً.

(حقاً، إنّ هذه الوثيقة الفريدة خليط في الواقع بين الحقيقة والخيال، وغالباً ما يكون من الصعب الجزم متى تبدأ الحقيقة وينتهي الخيال، ... أضف إلى ذلك ما كان يُعطى من مدد حكم ذات ديمومة أسطورية وغير مقبولة بالنسبة لعدد كبير من السلالات الأولى ...) [٤].

---

١. ثوركيلد ياكوبسون (١٩٠٤ - ١٩٩٣ م)، مؤرخ دانيماركي مشهور في الأدب الآشوري والسومري.

٢- هربرت جوزيف بلونديل (١٨٥٢ - ١٩٣٥ م)، عالم آثار بريطاني.

٣. انظر: د. خزعل الماجدي، أنبياء سومريون: ٧٥، ٨٠.

٤. صموئيل كريمر، السومريون: ٤٨.

من هنا، اقترح الباحثون عدة حلول؛ منها أنّ السومريين (بالغوا في تقدير سني حكم بعض الملوك بسبب ألوهيتهم أو لأنهم ذو علاقة بالأساطير الدينية، أو لأنهم كانوا يسمّون اليوم سنة، وبعدها سمّوا الأسبوع سنة، ومن ثم الشهر سنة) [١].

الملفت في الموضوع أنّ سني الحكم التي يمنحها ثبت الملوك السومري لبعض الملوك يكاد يلتقي مع بعض النصوص الدينية اللاحقة التي منحت لبعض الأنبياء كآدم ونوح أعماراً طويلة لا تنسجم مع عمر الإنسان الجيني على هذه الأرض، كقوله تعالى: "وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ" [٢]، ومن ثم أسرع الملحدون للإشكال على القرآن والدين الإلهي عموماً.

السيد أحمد الحسن طرح إشكال الملحدين هذا وأجاب عليه:

(..... لكن مسألة عمر نوح أو غيرها من المسائل التي تخالف الواقع العلمي لا تصلح للإشكال على ما أثبتناه وهو وجود إله؛ لأننا نستطيع أن نقول باختصار شديد: لا إشكال أن يجري الله المعجزات وإن كان بعضها يخالف الواقع العلمي، لأنها حالات فردية هدفها وضع الإنسانية الآدمية في بدايتها على طريق الإيمان بإله خالق للكون، هذا طبعاً مع أن بعضها ليست معجزات وإنما قضايا صعبة الفهم على من لا يعرف لغة المتكلم بها، فلغة القرآن لا يفهمها من لا يعرف العوالم العلوية التي نزل منها القرآن.

ولتوضيح المسألة علمياً أقول باختصار: إن ما يراه المراقب الخارجي للمنظومة الفيزيائية يختلف عما يراه المراقب الداخلي. وبالتالي عند حصول تمدد أو تقلص مثلاً في المنظومة الفيزيائية ستكون قياسات المراقب الموجود داخل المنظومة مختلفة تماماً عن قياسات المراقب الخارجي، والسبب أن المراقب الداخلي هو جزء من المنظومة، وبالتالي فهو مشمول بتمدد وتقلص المنظومة، وكذا معدات قياسه

١. انظر: علي شحيلات وعبدالعزيز الحمداني، مختصر تاريخ العراق - العصر السومري: ٢/ ٢٠.
٢. سورة العنكبوت، آية ١٤.

مشمولة بتمدد وتقلص المنظومة. وهذا يجعله عاجزاً عن معرفة أو قياس أي تغير شامل لكل المنظومة.

وهذا لا يمنع - إن كان لديه حياة نفسية كما هو حالنا - أن يحس إحساساً نفسياً أن هناك تغيراً في المنظومة، أو هناك تسارع أو تباطؤ، كإحساس كثير من الناس اليوم بتسارع الزمن مع أنهم عندما يقيسونه لا يجدونه قد تغير شيئاً.

وكمثال لتوضيح هذا الكلام؛ لنفترض أن إنساناً يعيش في غرفة ولديه أداة قياس طول (مسطرة مثلاً)، وطلبنا منه قياس طول طاولة في الغرفة، ومقارنة طوله مع طول وارتفاع الطاولة. ثم بعد ذلك لو فرضنا أن الغرفة وما فيها حصل لها تمدد منتظم شمل الجميع بنفس النسبة. فالآن لو طلبنا منه قياس طول الطاولة فسيجد أن الطول لم يتغير. وإذا طلبنا منه أن يقارن طوله مع طول وارتفاع الطاولة فلن يلحظ أي تغير، والسبب أنه تمددَ وكذا مسطرة القياس بنفس نسبة تمددِ الطاولة.

إذا توضح هذا؛ فيمكن فهم أن أي مراقب يمكنه القيام بالمراقبة من خارج المنظومة الكونية التي نعيش فيها ستكون قياساته مختلفة عن قياساتنا نحن الذين نعيش داخل المنظومة. فلو أن سلوك الكون المادي ككل تغير بصورة ما بحيث إن الزمن كبعد كوني رابع تمدد أو تقلص - أو بلغة بسيطة تباطأ أو تعجل - في المنظومة ككل، فلن نستطيع نحن قياسه ولا معرفة هذا التغير، لكن مراقباً يمكنه أن يراقب من خارج المنظومة الكونية التي نعيش فيها سيمكنه قياس هذا التغير، وعندما يتكلم سيعطينا أرقاماً تختلف عما قسناه نحن. وهذا باختصار يفسر لنا أن مراقباً من خارج المنظومة (الله سبحانه وتعالى أو الملائكة مثلاً) عندما تسأله أو يتكلم عن عمر نوح وقومه فسيعطيك رقماً يختلف عما تقيسه أنت الذي تعيش في داخل المنظومة، وعندما تطلب منه مقارنة عمر الإنسان اليوم وعمره قبل خمسة عشر ألف عام فسيعطيك أرقاماً مختلفة، مع أنك لا تجد أي اختلاف ملموس يمكن قياسه في الحدود المادية التي تعيش فيها) [١].

١. أحمد الحسن، عقائد الإسلام: ٣١ - ٣٢.

ونحن يمكننا أن نعمّم فكرة الجواب على ما ورد في ثبت الملوك السومري، شرط أن نحرز أنّ له صلة بالدين الإلهي أي أن يكون مضمونه دينياً، فلغة النص الديني (الذي يكون المراقب فيه خارج المنظومة) تختلف مقاساتها عن مقاساتنا نحن في هذا العالم كما عرفنا. وبخصوص صلة "الثبت" بالدين الإلهي فيكفي أنه يشير إلى أول ملك إنساني نصّبته السماء على هذه الأرض، والذي يلتقي مع آدم (عليه السلام) كأول خليفة لله في أرضه، ويشير كذلك إلى حفيده زيوسدرا - نوح (عليه السلام) كقدر متيقن وفق رأي أغلب الباحثين والمختصين.

وبذلك يتضح أنّ تسرّع بعض الباحثين لربط كل ما لا يستطيع فهمه أو إدراكه من نصوص سومر (كالتحديد الزمني الكبير في الثبت في حالتنا) بالأساطير والخرافة مجرد جهل وسوء فهم منه لا أكثر.

٥/١- رأي العلماء بنتاج سومر:

بالرغم من شدة الانبهار الذي أبداه علماء الآثار والسومريات تحديداً بالنتاج الحضاري الذي قدّمته سومر؛ الحضارة الضاربة في القدم والتقدم على حد سواء، إلا أنهم لم يتوانوا في وصف جوانب مهمة من عطائهم الثقافي والروحي بالأساطير والطرف التي نسجتها مخيّلتهم البكر الواسعة ولا شيء واقعي يقف وراء ذلك !

سهام الظلم الموجهة للسومريين من قبل الآثاريين وخصوصاً الملحدين منهم لم تكن هي الوحيدة، بل اصطف لها آراء رجال الدين، فهي الأخرى ساهمت بظلم السومريين ووصفت جانب مهم - إن لم يكن الأهم - من حضارتهم ونصوصهم بالأساطير والخرافات. مع أنه كان عليهم، لا أقل، أن يعرفوا أنّ الديانات الإبراهيمية الثلاث "اليهودية والمسيحية والإسلام" ترجع كلها بالأصل إلى إبراهيم (عليه السلام) وهو من سومر كما لا يخفى.

١/٥/١- رأي علماء الآثار:

لم يخفِ كبير علم السومريات إعجابه بنتاج سومر، يقول د. كريمر: (أنتج السومريون أدباً يتسم بالضخامة وسرعة التطور ويتميز بالكثير من الخصائص الشعرية، ويتألف من الملاحم والأساطير والتراتيل والمراثي والأمثال والحكم، ..... وتعتبر هذه التآليف نتاجاً أدبياً له مكانة مرموقة بين ما ابتدعه الإنسان المتمدن من نتاج ذهني، وليس من العسير مقارنتها بالطرف الأدبية الإغريقية والعبرانية القديمة، وهي كتلك الطرف تعكس الحياة الروحية والثقافية لحضارة أخرى عرف عنها الشيء القليل، ومن الصعوبة جداً القول بأن إبراز أهمية هذه التآليف بالنسبة للتطور الروحي والثقافي في الشرق الأدنى يعتبر مغالاة في التقدير) [١].

ولا أعرف أيّ تقدير لنتاج سومر يتحدث عنه كريمر وهو يراه مجرد طرف أدبية نسجها ذهن الإنسان السومري وخياله ؟!!

رأي كريمر هذا يكاد لا يخالفه فيه الكثير من الباحثين في السومريات وحضارة وادي الرافدين القديمة، خصوصاً وأنهم يقرّون له بالريادة في هذا الميدان المعرفي، لهذا نجد أنّ مصطلح "أساطير" تصدّر عناوين أغلب البحوث والمؤلفات في الحضارة السومرية.

والأسطورة - كما قيل في تعريفها - حكاية مقدسة أبطالها الآلهة مصاغة بنص أدبي، ويتلخّص فرقها عن الخرافة والحكاية الشعبية بأنّ الأخيرتين غير مقدستين ولا تلعب الآلهة دوراً فيها [٢].

(إنّ الأساطير لها أهميتها الكبيرة في دراسة تاريخ الفكر الإنساني، فحين كان المجتمع البشري يقطع المراحل الأولى من طريق تطوره الصاعد، لم يكن الإنسان يملك من أدوات البحث ووسائل التفكير ما يعينه على النفاذ إلى أعماق الوجود واستخلاص الحقائق الموضوعية منه، فكانت الأسطورة وسيلته إلى ذلك، ولهذا

---

١. صموئيل كريمر، الأساطير السومرية: ١٩ - ٢٠.

٢. انظر: فراس السواح، مغامرة العقل الأولى: ١٩ - ٢١.

نستطيع القول بأن الأساطير هي أول محاولة في تاريخ الفكر الإنساني لوضع مفاهيم فلسفية تهدف إلى إنقاذ الإنسان من متاهات الجهل بأسرار الطبيعة وظواهرها) [١].

وكأنّ قدر الإنسان السومري يسير مضطراً بين أمرين لا ثالث لهما، والأمران أحلاهما مرّ كما يقال: إما البقاء في متاهة الجهل أو أن يأسره خياله فيسمح له بنسج الأساطير عن كل شيء ؟!!

وإذا كان ما جادت به سومر (في الجانب الروحي والثقافي) من نسج الذهن والخيال ولا واقع حقيقي وراءه، فلِمَ لم يبقَ "إنسان الأساطير" هذا أسيراً لجيناته الأنانية وينسج ما يلائمها فقط، ومن ثمَّ لا يُتوقع منه ربما أكثر مما جاد به إنسان الكهوف والمغارات، لِمَ تمرد الإنسان السومري على جيناته وسمح لخياله أن ينسج مفاهيم تتصل بالأخلاق والإيثار والخلود والعدل وإنصاف المظلوم وما شابه ؟!

أقل ما يقال عن مثل هذا الطرح الذي أتخمت به بحوث الآثاريين وتراه أمامك أينما صرفت وجهك أنه غير منصف تماماً كما أنه غير منطقي ولا علمي بالمرة.

٢/٥/١- رأي علماء الدين:

على مستوى رجال الدين، فالأمر أسوأ بكثير؛ ذلك أنّ موقف الآثاري السلبي والمتطرف من نتاج سومر لا يشكّل في النهاية أكثر من الحياد عن الإنصاف والعلمية التي يفترض أن يتحلّى بها في آرائه، لكن آراء ومواقف رجال الدين لما كان سلبياً من جهة ومن جهة أخرى: لم يعد خافياً مدى التشابه الكبير بين مضامين النصوص السومرية ونصوص الأديان السماوية الثلاثة اللاحقة، فإنّ وصفهم النتاج الثقافي والروحي السومري بالأسطوري والخرافي انعكس سلباً على الدين الإلهي عموماً، ما شكّل طعنة في خاصرة الدين استغلها الملحدون لضرب الدين الإلهي واعتباره مجرد أساطير وخرافات أنتجتها ذهنية أرضية بدائية !

---

١. الأساطير السومرية: ١٣، مقدمة المترجم: يوسف داود عبدالقادر.

فعلى مستوى المسيحيين، تصدّى بعض علماء الكنيسة للرد على أوجه الشبه بين نصوص الكتاب المقدس والنصوص السومرية التي شخّصها الكثير منها علماء السومريات، وأكثر "حلمي القمص يعقوب" من ذكر مصطلح "أساطير، خرافات خزعبلات" في وصف النصوص السومرية [١].

وعلى مستوى علماء المسلمين، فهذا سؤال وجّه لمركز الأبحاث العقائدية التابع لمرجعية السيد السيستاني حول "ملحمة جلجامش" أحد أهم النصوص السومرية أنقله كما هو منشور في موقعهم الرسمي:

[علي عبد الحسين / العراق

السؤال: ملحمة كلكامش

قبل مدة من الزمن دار بين وبين بعض الملحدين حول اصل الدين واجابوني بان اصل الدين هو من تراث الحضارة السومرية لاحتواء اسطورة كلكامش على مواضيع الخلق وغيرها المشابهة لقصة الخلق في الدين الاسلامي, وهذا يعني ان الدين الاسلامي استقى افكاره من الحضارة السومرية وغيرها من الحضارات للسبب اعلاه, وبذلك ثبت لديهم ان ديننا الاسلامي مجرد اسطورة.

الجواب:

الأخ علي المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

اسطورة كلكامش (كما يدل عليها اسمها) مجرد ملحمة قصصية ورد فيها تصور بدائي عن نشأة الكون وهي تستند على تعدد الالهة ولا علاقة لها بالتوحيد

١. انظر: "كتاب النقد الكتابي: مدارس النقد والتشكيك والرد عليها" س٢٧٢ - س٣٠٦. متاح على:
https://st-takla.org/books/helmy-elkommos/biblical-criticism/index٤b.html

الذي جاءت به الاديان ولا تتضمن شريعة الهية لتنظيم شؤون الناس بل ارهاصات لنظام قائم على سلطة الحاكم الذي يستمد شرعيته من الالهة المتعددة .

اما الاسلام بل سائر الاديان السماوية فهي اديان توحدية لها شرائع محكمة ووصايا الانبياء باعتبارهم مبعوثين من قبل الله تعالى لهداية البشر وانقاذهم من الشرك وعبادة الاوثان وطاعة الكبراء من الحكام والطغاة وغيرهم فهي تعاكس الاسطورة اذن على طول الخط .

ودمتم في رعاية الله] [١].

أيضاً: هذا جوابهم على سؤال بخصوص مواكب العزاء على (تموز) في بلاد ما بين النهرين قديماً ومشابهتها لمواكب العزاء الذي يقيمه العراقيون على الحسين بن علي (عليه السلام):

[..... والسؤال الذي يتبادر الى الذهن: هل هي صدفة ان يكون هناك تشابه, مع الفارق بين الغاية والهدف, بين انطلاقة مواكب العزاء الحسيني يوم عاشوراء من اطراف المدن وبخاصة كربلاء لتذهب الى المساجد والحسينيات والمراقد المقدسة لاستذكار يوم عاشوراء, وبين ما كان يجري في سومر واكد من مواكب واحتفالات باستذكار عودة تموز من العالم السفلي؟!!

الجواب: ..... ولذلك لا نستبعد أن يكون أسطورة تموز محاكاة قصصية لفكرة المخلص (البطل), كما لا نستبعد أن تكون الأسطورة مبتنية على ما ورد بشأن المخلص في الكتب والصحف الدينية القديمة.

ولكن في النهاية أي علاقة بين مراسم عاشوراء وبين تفسيرات علماء الآثار واحتمالاتهم ومقارناتهم لأعياد تموز وعشتار, فان مراسم عاشوراء مرتبطة بواقعة قطعية ثابته في التأريخ الإسلامي والاعياد البابلية لا تعدو أصولها عن تفسيرات

١. متاح على: http://www.aqaed.com/faq/٨٣٠٣

اسطورية لحد الآن, وبعد كل هذا لابد من إثبات استمرار هذه الأعياد من زمن بابل إلى الزمن الإسلامي مروراً بدولة الأكاسرة ودون هذا خرط القتاد] [١].

لا أعرف عن أيِّ قتاد وخرط تتحدث عنه الإجابة ؟!

عموماً، سنخصص الفقرة الثالثة من البحث لدراسة مأساة دموزي وملحمة جلجامش بالذات ونتعرف على بعض المضامين الدينية الواردة فيهما، حينها سيعرف القارئ أي جرم ارتكبته مثل هذه الإجابات غير المسؤولة.

وأيضاً: هذا جوابهم على سؤال بخصوص ذكر الأنبياء في البحوث الآثارية:

[علي جون / العراق

السؤال: لماذا لا توجد في الابحاث الأثارية اثباتات على وجود الأنبياء؟ لماذا لا توجد في الابحاث الاثارية الغربية والشرقية التي تمت في بلادنا اي اثباتات على وجود الانبياء او ذكر لهم، وان كان لهم ذكر فهل تقدمون لنا (فضلا لا امرا) نماذج مفصلة.

الجواب:

الأخ علي جون المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لا ندري ماذا تعني بالاثباتات الآثارية، فهل أنك على سبيل المثال تريد من علماء الاثار والمتحجرات أن يجدوا في مخلفات الحضارات المنقرضة قبوراً للأنبياء أو أدوات كانت تستعمل من قبلهم في حياتهم اليومية؟ ألا يكفيك ما وصل إلينا عبر الاف السنين من صحف وكتب الانبياء؟ ألا يكفي ما ذكره القرآن الكريم من أخبارهم؟ ثم أليست قبور بعض الأنبياء والأولياء والصالحين ومحاريبهم موجودة إلى

١. متاح على: http://www.aqaed.com/faq/٥٥٠٧

الان والناس يقصدونهم للزيارة والتبرك؟ هل تطالب علماء الأثار أن يعثروا مثلاً على متحجرات وهياكل عظمية للأنبياء عليهم السلام حتى يصدق أنهم كانوا موجودين مثلما (تدّعي) الأديان والكتب السماوية؟

لقد عثر العلماء على بقايا من الحضارات التي كان يعاصرها الانبياء كحضارة بابل وحضارة مصر وغيرهما، وهذا هو كل ما يستطيع علماء الاثار من الحصول عليه، فليس من تخصصهم البحث عن الاشخاص بما هم اشخاص وإنما هم يبحثون عن مخلفات الأمم والحضارات.

ودمتم في رعاية الله] [١].

أعتقد أنّ السؤال كان أكبر من الإجابة بكثير، فالسائل كما يبدو غير مطلع على نتائج الأبحاث العلمية الآثارية التي أجريت في العراق والتي ذكرت بعض أنبياء سومر كنبي الله نوح (عليه السلام) صاحب الطوفان، فطلب من مركز علمي يمثل جهة دينية مختصة، يفترض أن تكون على صلة بخط الأنبياء، أن ترشده إلى نماذج مفصلة - حسب قوله - توضح وجود الأنبياء وأثرهم بين الناس في بلد كالعراق الذي يوصف بأنه بلد الأنبياء ومهد الرسالات السماوية، ولا يريد السائل إرشاده إلى قبورهم أو هياكلهم العظمية كما ورد في الجواب التهكمي الذي كشف جهل المجيب بصورة كبيرة.

أقول: ربما يجد السائل ضالته في هذا البحث، وسيرى بوضوح أنّ الحضارة الإنسانية الأولى على هذه الأرض، التي أدهش تقدمها الإنسان الحالي وهو في قمة تقدّمه العلمي والتكنولوجي، ما كانت لتكون لولا أنبياء الله،

على أي حال، سأكتفي بهذا لأنّ بقية الآراء لا تكاد تختلف عما ذكر في نظرتها السلبية تجاه قصص وملاحم السومريين التي ضمّتها نصوصهم المكتشفة، علماً أنّ رجال الدين بموقفهم هذا - سواء كان بقصد أو بدونه - يكونوا قد فتحوا الباب على

١. متاح على: http://www.aqaed.com/faq/٨٨٠٢

مصراعيه أمام الملحدين للطعن بالدين الإلهي واعتبار أنّ أصله أسطوري خرافي نسجه خيال الإنسان السومري البدائي.

نحن من جهتنا غير معنيين بهذه الآراء والمواقف أصلاً، بل ونعتبرها لا تمثل الدين الحقيقي في شيء وإنما تمثل رأي أصحابها لا أكثر؛ لأن عقيدتنا قائمة على أنّ الدين الحقيقي لا يمثله إلا رجال منصبين من قبل الله؛ تماماً كما هي عقيدة السومريين التي ستتضح لاحقاً.

وبالنسبة لموقف الملحدين، فإنّ مجرد التشابه بين نصوص سومر وبين نصوص تضمنتها رسالة موسى أو عيسى أو محمد (صلوات الله عليهم) لا يعني أنّ دينهم - وحاشاهم - أسطوري ذو منشأ أرضي ومن تأليف الإنسان، بل يعني أنّ الدين الإلهي واحد ومنشأه واحد، وينحصر الكلام مع الملحدين - بعد هذا - في إثبات وجود الله لا غير وقدرة المؤمنين به سبحانه على إقامة الدليل على ذلك من عدمه. على أننا نعتبر مثل ذلك التشابه أمراً حتمياً كما أشرنا سابقاً، نفتخر به ويزيدنا يقيناً برسالة السماء التي صاحبت الإنسانية المتحضرة منذ لحظتها الأولى على هذه الأرض؛ التحضر الذي ما قدّر له التواجد على مسرح حياة البشر لولا رسالة السماء، وقد أكد ذلك السومريون أنفسهم في نصوصهم كما لاحظنا، بل ويحدونا - ذلك التشابه - لأن ننحني إجلالاً أمام العطاء الكبير الذي جاد به أنبياء الله الأوائل في رحلتهم التربوية والتعليمية مع إنسان سومر وسلفه.

وليس هذا فحسب، بل إنّ الباحث المنصف في مفردات النهضة الحضارية التي شهدتها سومر عموماً، وفي جانبها الثقافي الروحي والأخلاقي كالعدالة والإيثار وما شابه بالخصوص، ليس بوسعه إلا أن يعتبرها دليلاً على إثبات وجود الله، وهذا بالضبط ما انتهى إليه السيد أحمد الحسن بعد بحثه في نتاج سومر الحضاري والثقافي.

(الآن، يحق لنا أن نقول: إنه لا يوجد عاقل يقول إنّ كل هذا النتاج المتقدم الذي ظهر في صفحة التأريخ بوضوح قبل آلاف السنين جاء من لا شيء، أو تطور عن ثقافة متخلفة بدائية مع أنه لا يوجد أي أثر لسلسلة التطور الثقافي المزعوم، ... الآن، يحق لنا أن نتساءل: ألا يدل هذا النتاج على أنّ هذا الكائن الذي أنتجه أو جاء

به يتصف بأنه منظَم وبالتالي فإنّ مؤثره يتصف بأنه مُنَظِم وعالِم، وبهذا يثبت وجود الله، أظن أنّ أي عاقل لا يجيد العناد واللجاج سيقول: نعم) [١].

كم هو الفرق كبير، بل وكبير جداً، بين من يفتح الباب أمام منظري الإلحاد للطعن في الدين وإنكار وجود الله من خلال حكمه على أهم ما في نتاج سومر بالأسطورة والخرافة، وبين من يجعل من نتاج سومر دليلاً على إثبات وجود الله ؟!!

١. أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ٣٤٥.

(٢)

الأصل الإلهي للدين السومري

السومريون شعب متديّن بامتياز وهذا واضح لمن طالع نصوصهم، بل وعندهم الدين الإلهي كلّه كما سنعرف الآن. وليس كما يتصور الكثير من رجال الدين. نعم، يمكن القول إنه دين إلهي طاله التحريف بتقادم الزمن.

ليس صحيحاً اعتبار الديانة السومرية ديانة أرضية بدائية متخلفة بسبب كثرة الآلهة فيها؛ (لأن الديانة السومرية لا تختلف عن الديانات التي أتت بعدها إن لم نقل إن الديانات الإنسانية بعدها مبنية على أساس الديانة السومرية، أما الآلهة الكثر كما يسميهم السومريون أحياناً فتجدهم في القصص والملاحم والرقم الطينية السومرية يتصفون بأنهم بشر أو ملوك حكماء، فهم يتزوجون ويلدون ويقتلون ويظلمون ويبكي عليهم الناس، أو أنهم عبارة عن رموز...) [١].

سنتعرف في هذا البحث على بعض المفاهيم الدينية والروحية والأخلاقية الراقية التي توافر عليها دين سومر، ولو لم يكن الأمر كذلك لما كان هو الملهم لبقية شعوب الشرق آنذاك، بل وترك أثره العميق فيهم بشكل كبير.

(طوّر السومريون المفاهيم الدينية والروحية كما دمجوا مجموعة الآلهة المختلفة على نحو رائع، فكان لهذا الدمج أثره العميق على شعوب الشرق الأدنى بضمنهم العبرانيين والإغريق، إضافة إلى نفاذ الشيء الكثير من هذه المفاهيم الروحية والدينية إلى عالمنا المتمدن الحديث عن طريق الأديان السماوية) [٢].

---

١. أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ٣٤٤.

٢. صموئيل كريمر، الأساطير السومرية: ١٩.

الإنسان السومري لا يكاد يفارقه معتقده الديني حتى في أبسط أموره، فلم يزل الفلاح السومري على سبيل المثال - لأجل زيادة محصوله - يقدّم الدعاء والصلاة لربه بمجرد رمي بذوره في الأرض: (في اليوم الذي تشق فيه البذور الأرض يلزم الفلاح أن يقدم الصلاة إلى الآلهة) [١].

وهذه بعض الإشارات التي تؤكد أهمية الدين لدى السومريين:

١. كثرة الألواح والرقم الطينية المكتشفة، الخاصة بالعقيدة والدين عموماً قياساً بغيرها؛ خصوصاً إذا ما اعتبرنا - كما هو الصحيح - أنّ الملاحم والقصص السومرية فيها الكثير من الإخبارات الدينية الغيبية كما سيتضح.

٢. لا شك عند العلماء والباحثين أنّ أغلب مشاهد النحت السومري كانت دينية؛ الأمر الذي يشير - هو الآخر - إلى مكانة الدين في نفوس السومريين.

(والحقيقة التي يجب أن نتذكرها مبدئياً هي أنّ كل أشكال فن النحت السومري، سواء كانت على شكل تماثيل مستديرة أو لوحات ونقوش نافرة، كانت ذات صفة دينية) [٢].

٣. إنّ شرعية الحاكم في النظام السياسي لدى السومريين تستمد من السماء لا غير، فعلى سبيل المثال: يقول كريمر عن الحكم في مدينة "كيش" السومرية: (هي المدينة التي تسلمت "الملوكية"، كما جاء في الأساطير السومرية، من السماء بعد الطوفان فوراً) [٣].

٤. في اللوح الذي يؤرخ لأول قانون سومري مدوّن تم كشفه حتى الآن، لم يفارق "المعتقد" ذلك القانون حيث جاء فيه: (بعد أن خلق العالم، وبعد أن تقرر مصير بلاد "سومر" ومصير مدينة "أور"، عين الإلهان "آن" و"إنليل" الاله القمر

١. انظر: صموئيل كريمر، من ألواح سومر: ١٣٩.
٢. سيتون لويد، آثار بلاد الرافدين: ١٥٤.
٣. صموئيل كريمر، من ألواح سومر: ٨٣.

"ننا" ملكاً على مدينة "أور". ثم اختار هذا الإله بدوره "أور - نمو" ليحكم بلاد سومر ومدينة "أور" بصفته نائباً عنه يمثله في الأرض) [١].

١/٢- الألوهية وخلق الكون في الدين السومري:

١/١/٢- خلق الكون والإنسان:

يلخّص د. فاضل عبدالواحد [٢] خلق الكون والإنسان عند السومريين بما يلي:

في البدء كانت مياه البحر فقط، ومنها تولّد جبل كوني يمثل السماء (آن) والأرض (كي). ثم نتيجة اتحادهما ولد إله الهواء "إنليل"، وهو الذي قام بفصلهما، وبعد أن تم الفصل وخلق الكواكب والنجوم ظهرت معالم الحياة على الأرض. وأما بخصوص الإنسان، فإنّ الآلهة خلقته من "طين" من أجل أن يكد ويكدح لخدمتهم.

وهذا أحد النصوص السومرية في خلق الإنسان من طين:

[اجعل للآلهة خدماً، يصنعون
فتأمل انكي ملياً في الأمر، ثم دعا الصنّاع الإلهيين المهرة وقال لأمه نمو:
إن الكائنات التي ارتأيت خلقها، ستظهر للوجود
ولسوف نعلق عليها صورة الآلهة
امزجي حفنة طين، من فوق مياه الأعماق
وسيقوم الصناع الإلهيون المهرة بتكثيف الطين] [٣].

يقول ديلا بورت: (فسر السومروأكاديون أصل الإنسان بمختلف الوسائل في الأشعار الدينية والشعبية ولكنهم اتفقوا جميعاً على نقطة هامة هي أنّ المعبود صنعه

---

١. المصدر نفسه: ١١٩.
٢. انظر: فاضل عبدالواحد علي، من سومر إلى التوراة: ١٩٤ - ١٩٧.
٣. انظر: فراس السواح، مغامرة العقل الأولى: ٤٥ - ٤٦.

من كتلة من الطين وأنه خلق من أجل خدمة الآلهة. ..... وكان هذا الخلق يتم في صورة المعبود) [١].

والمتحصل في قصة الخلق السومرية بحسب النصوص: (إن الآلهة كانت تستطيع تنفيذ مشيئتها فتخلق الأشياء التي تريدها بوسيلتين: الأولى بصنع الشيء أي عمله حسب رغبة الإله وعلى النحو الذي رأينا قبل قليل في عملية خلق الإنسان. والثانية بواسطة الأمر الإلهي أي بقوة الكلمة الإلهية التي من خلالها يأمر الاله الشيء أن "يكون" وعندئذٍ يكون الشيء حسب أمره) [٢].

وكأنه يذكرنا بقوله تعالى: [إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ] [٣].

وكما نرى، فإنّ معتقد السومريين في خلق الكون والإنسان - بحسب الأصل - يعتبر "الماء" أصل الوجود والخلق، وأنّ السماء والأرض كانتا رتقاً ثم فصلتا، وأنّ عملية الخلق تمت عبر وسائط، وأنّ الإنسان خلق من طين على "صورة الله". وكم لهذا المعتقد من نظير في نصوص الديانات الإلهية المعروفة، منها على سبيل المثال:

في سفر التكوين - اصحاح ١: [١فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ. ٢وَكَانَتِ الأَرْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً، وَعَلَى وَجْهِ الْغَمْرِ ظُلْمَةٌ، وَرُوحُ اللهِ يَرِفُّ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ ..... ٢٦وَقَالَ اللهُ: «نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا، ....». ٢٧فَخَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ. عَلَى صُورَةِ اللهِ خَلَقَهُ].

[عن محمد بن مسلم قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عما يروون أن الله خلق آدم على صورته، فقال هي: صورة، محدثة، مخلوقة واصطفاها الله اختارها على سائر الصور المختلفة، فأضافها إلى نفسه ...] [٤].

---

١. ديلا بورت، بلاد ما بين النهرين: ١٥٩ - ١٦٠، ترجمة: محرم كمال.

٢. فاضل عبدالواحد علي، من سومر إلى التوراة: ١٩٧.

٣. سورة يس، آية ٨٢.

٤. الكليني، الكافي: ١/ ١٣٤/ ٤.

وفي القرآن الكريم: [أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ]، [وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ]، [فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ] [١].

يقول السيد أحمد الحسن: (الخالق المباشر أو المصمم المباشر ليس اللاهوت المطلق بل هم روحانيين من مخلوقات الله، فالله خلق بأيد كما بيّن بالقرآن: "وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ"، وأيدي الله أي خلقه العاملون بإرادته، ...) [٢].

ويبقى الفرق بين خلقه سبحانه وخلق غيره: أنّ خلقه إيجاد من العدم (لا شيء)، وأما خلق غيره فهو إيجاد من شيء بإذنه سبحانه.

٢/١/٢- تعدد آلهة أم إله واحد ؟

من أجل فهم عقيدة السومريين في اللاهوت أو إنصافهم لا أقل، أجد من الضروري - كمقدمة - التعرض إلى بحث عقائدي ما انفك أن يكون موضع خلاف بين الديانات السماوية المعروفة بل حتى داخل الديانة الواحدة.

المسيحية الكنسية - على سبيل المثال - تعتقد بألوهية السيد المسيح المطلقة وتؤمن بالأقانيم الثلاثة: (الآب، الابن، روح القدس) مع الإيمان بأنّ الله واحد. والسلفيون (الوهابيون) يعتقدون بأنّ الله واحد أيضاً، لكن له وجه وعينان ويدان في كل منهما خمسة أصابع وله قدمان ...الخ، كل ذلك على نحو الحقيقة !

المشكلة الكبيرة التي ابتلت بها الأديان الإلهية في بحث الألوهية - وغيره من بحوث الاعتقاد والدين عموماً - هي تشابه النصوص الدينية من جهة، ومن جهة أخرى: عدم أهليّة المتصدّين لتوضيحها وتفسيرها؛ لأنهم بالأصل ليسوا منصّبين لبيانها من قبل صاحب الدين = الله سبحانه.

---

١. الآيات: سورة الأنبياء، آية ٣٠؛ سورة الذاريات، آية ٤٧ - ٤٨؛ سورة المؤمنون، آية ١٤.

٢. أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ٢٣٠.

والسؤال الأساس هنا: هل لفظ "إله" أو "الله" مختص بالله سبحانه أي هو لفظ جامد، أم يمكن أن يطلق على غيره مع قرينة أو قيد إضافي ؟

أغلب علماء الدين يرون أنّ اللفظ جامد، وبالتالي لما يُطلق يراد به الإله المطلق سبحانه لا غير، ولذلك فهِمَ الوهابيون أنّ لله يداً ووجهاً وعيناً ويذهب ويأتي وله صورة من أمثال النصوص التالية: [يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ... كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ... وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ... هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ... خلق الله آدم على صورته] [١].

وفهِمَ المسيحيون ألوهية عيسى من مثل: [فِي البَدْءِ كَانَ الكَلِمَةُ، وَالكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللهِ، وَكَانَ الكَلِمَةُ اللهَ] [٢]، بعد اعتبار أنّ عيسى هو الكلمة.

ولكن الصحيح أنّ لفظ "الله" مشتق، ويصح إطلاقه على غير الله سبحانه بقرينة صارفة أو قيد إضافي طالما توفر مصدر الاشتقاق، وهو ما أجاب به الإمام الصادق (عليه السلام) هشام بن الحكم لما سأله: [الله، مما هو مشتق؟ قال: يا هشام، الله مشتق من اله، واله يقتضي مألوهاً ...] [٣].

وعن السؤال أعلاه أجاب السيد أحمد الحسن: (نعم، يمكن أن يطلق ولكن ما يمنع إطلاقه هو الاستعمال تماماً كما يمنع إطلاق الرحمن على غيره سبحانه وتعالى الاستعمال، ولكن هذا المنع يمكن أن يرتفع بوضع قيد أو وصف إضافي يميزه عند الإطلاق على غير الذات الإلهية كالقول: (الله في الخلق)، أي بمعنى صورة الله كما ورد في الحديث وبمعنى روح الله كما ورد في القرآن، أو كالقول: "يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ"، أو كالقول: "هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الغَمَامِ") [٤].

---

١. مصادر النصوص كما يلي: سورة المائدة، آية ٦٤؛ سورة القصص، آية ٨٨؛ سورة طه، آية ٣٩؛ سورة البقرة، آية ٢١٠، حديث للرسول محمد (صلى الله عليه وآله).

٢. إنجيل يوحنا: ١/ ١.

٣. الكليني، الكافي: ١/ ٨٧/ ٢.

٤. أحمد الحسن، كتاب التوحيد: ١٣٨.

يترتب على هذا الفهم للألوهية: أنّ لفظ "إله" أو "الله" يصح إطلاقه (مع القيد طبعاً) على كل جهة تتصف بكمالٍ ما يأله له الإنسان ليسد نقصه من خلاله، وما يميز ألوهيته سبحانه أنها ألوهية مطلقة وغناها ذاتي، في حين أنّ ألوهية غيره مقيدة ومفتقرة إليه في كل شيء.

(إذن، فالألوهية بالمعنى العام - أي كونها تعني الكامل الذي يأله له غيره ليكمله، ويسد نقصه - تشمل خاصة من خلقه سبحانه وتعالى حصل لهم الكمال في أعلى الدرجات الممكنة للخلق، وأمر الخلق مفوض إليهم بدرجة معينة) [١].

ثم بعد أن نقل بعض نصوص المسلمين التي تؤكد هذه الحقيقة، منها: ما ورد في الدعاء: "يا رب الأرباب وإله الآلهة"، و"توكلت على الإله الأكبر" ونحو ذلك، قال السيد أحمد الحسن:

(وقطعاً ليس المقصود الآلهة الباطلة التي لا حظّ لها من الكمال أو من ألّه نفسه من الخلق بالباطل، بل المقصود هنا من اتصفوا بصفة اللاهوت أي إنهم على درجة عالية من الكمال فيأله لهم بقية الخلق ليسدوا نقصهم فهم صورة الله سبحانه، فإله الآلهة، والإله الأكبر تعني: أن هناك من اتصفوا بصفة اللاهوت من حيث إنهم على درجة من الكمال تؤهلهم أن يأله لهم بقية الخلق لطلب الكمال، ولكنه سبحانه لا يقرن بهم لأنه غني وهم فقراء محتاجون إليه سبحانه وتعالى) [٢].

ولو كان المسيحيون والسلفيون ملمّون بهذه الحقيقة لما انحرف المسيحيون إلى اعتبار مخلوق لله (وهو المسيح) لاهوتاً مطلقاً أو انحرف السلفيون للتجسيم، ولعرفوا أنّ "اليد والوجه والعين والإتيان والصورة والبدء أو البداية" التي قرنت بلفظ "الله" في النصوص المتقدمة هي قرائن واضحة تصرف اللفظ إلى الألوهية المقيدة أو قل "الله في الخلق" أي مخلوق لله متصف بأعلى درجات الكمال.

---

١. أحمد الحسن، كتاب التوحيد: ٤٠.

٢. المصدر نفسه.

إذا اتضحت هذه المقدمة، أعود إلى مفهوم الألوهية عند السومريين، فإنّهم - بحسب النصوص - يطلقون صفة "الإله" على كثيرين، وبالتالي فهناك تعدد على مستوى الآلهة. وهذه أسماء بعض آلهة سومر المهمة:

- آن (An): إله السماء الرئيس وكبير الآلهة.
- كي (Ki): إلهة الأرض.
- انكي (An-ki): إله الماء.
- انليل (Enlil): إله الهواء.
- أوتو (Uto): إله الشمس.
- نانا (Nana): إله القمر.
- اينانا (Enana): إلهة الحب والقتال.
- وأما (الأنوناكي): فهو اسم يطلق على جميع الآلهة.

(كانت كل قوى الطبيعة وكل قوى الخير وعلى العموم كل الأجسام السماوية تؤله عند السومروأكاديين، وكان عدد المعبودات التي يلتمسونها كبيراً جداً، وكان لكل مدينة معبودها) [١].

وبالالتفات إلى ما أوضحناه في المقدمة، فإنّ مجرد التعدد في إطلاق لفظ "الإله" على جهات عديدة لا يعني أنّ الديانة السومرية ذات أصول وثنية وأرضية ولا تمت إلى السماء بصلة - كما استنتج الكثير من الباحثين ذلك في دراسته لعقيدتهم - بل لعله يدل على أنّ فكرة "الألوهية في الخلق" كانت حاضرة عندهم، إضافة إلى اعتقادهم بالإله المطلق، ولذلك كانوا يعتبرون مثل هذه الآلهة شبيهة بالإنسان شكلاً رغم أنها لا تُرى بالعين بنظرهم، وأنّ وظيفتها التدبير وفق الخطط والقوانين الصادرة من "الإله الواحد" والكبير الذي يشرف عليها وينظم أعمالها.

(تخبرنا الوثائق السومرية، أن اللاهوتيين السومريين اعتقدوا بوجود مجموعة من الآلهة شبيهة بالإنسان شكلاً، إلا إنها تمتلك صفتي الخلود والتفوق، ولا تُرى بالعين، وإن تلك الآلهة تقود الكون وتدبّره بما فيه وفقاً لخطط معينة وقوانين

١. ديلا بورت، بلاد ما بين النهرين: ١٤٣.

معلومة، وإن كل إله من تلك الآلهة مسؤول عن إدارة جزء من هذا الكون، وتختلف أهمية كل إله وفقاً لخطورة الجزء الذي هو مسؤول عنه. وأعظم هذه الآلهة أربعة، وهي آلهة السماء والأرض والهواء والبحر، وتلك هي الآلهة المسؤولة عن عملية الخلق وفقاً لما تقتضيه حاجة المملكة التي يدبرها. وإن هذه المجموعة من الآلهة تعمل تحت إمرة إله واحد كبير يشرف عليها وينظم أعمالها) [١].

(كانوا يؤمنون أن الكون موكول أمره إلى مجمع مؤلف من طائفة من الكائنات الحية، لهم هيئة كهيئة الإنسان إلا أنهم يفوقونه ولا ينال منهم الموت، وهم، وإن كان الفانون لا يرونهم، إلا أنهم يديرون دفة العالم ويتحكمون به وفقاً لخطط رسمت بعناية ونواميس قدرت حسب الأصول) [٢].

وهذا خطاب وجّهته مجموعة من الآلهة للإله مردوخ (عند البابليين) في حربها مع تيامة:

[يا مردوخ أنت بالحق من يثأر لنا
وها نحن نبايعك على ملوكية الكون بأجمعه
وعندما تأخذ مكانك في المجلس فستكون كلمتك هي العليا
وسوف لا تقهر أسلحتك ، بل إنها ستحطم أعداءك
يا سيدنا ! انقذ حياة من وضع ثقته فيك
وأزهق روح كل إله اقترف معصية .....
يا سيدنا إن أمرك حقاً هو الأول بين الآلهة
فانطق سواء بالفناء أو الوجود فإنه سيكون ...] [٣].

آلهة تعترف بضعفها، وبإمكان صدور المعصية منها، وتبايع إلهاً وتعتبر كلمته هي العليا ! آلهة تتخذ إلهاً سيداً لها وتعتبر أمره هو الأول... وهكذا ! إذن، ألوهيتها ليست مطلقة وغنية بذاتها وإنما هي ألوهية مقيدة ومفتقرة بشكل واضح جداً.

---

١. صموئيل كريمر، هنا ابتدأ التاريخ: ٦٤ - ٦٥، ترجمة: ناجية المراني.
٢. صموئيل كريمر، طقوس الزواج المقدس عند السومريين، ترجمة: نهاد خياطة.
٣. انظر: فاضل عبدالواحد علي، من سومر إلى التوراة: ١٩٧ - ١٩٨،

نعم، ما توضح أعلاه لا ينفي أن يحصل تحريف في نفس المعتقد الحق "الألوهية في الخلق" بمعنى أن يتم تأليه من لا يجوز تأليهه أو اعتبار غير الله سبحانه إلهاً مطلقاً، ومثل هذا الأمر حصل ويحصل دائماً وليس عند السومريين فقط.

وتعقيباً على وصف السومريين لبعض الشخصيات في نصوصهم بـ "الإله" كدموزي وجلجامش وغيرهم، يقول السيد أحمد الحسن:

(ومع أنّ السومريين يعبّرون عنهم بالآلهة ولكن عندما تقرأ سيرة هذه الشخصيات في الرقم الطينية السومرية تعلم أنهم بشر فهم يأكلون ويشربون وينامون ويتزوجون وينجبون، وواضح أنها مجرد عملية تحريف للدين الإلهي وأنّ هؤلاء الآلهة ما هم إلا مجموعة الغيب التي تتمثل بالأنبياء والصالحين والملائكة وأيضاً الذات والدنيا، فهي مسألة الغلو والتحريف للدين المستمرة منذ خلق الله آدم وربما بعض الأحيان المقصود بالإله ليس الإله المطلق بل المراد هو كل ما يؤله له وقد بينت في كتاب التوحيد معنى الألوهية والربوبية وأنها ألفاظ يمكن أن تطلق على المخلوق بالأصل) [١].

٣/٢/٢- هل الآلهة من عالمنا أم من عالم آخر ؟

مرَّ بنا قبل قليل قول د. كريمر في كتابه "هنا ابتدأ التاريخ" بخصوص اعتقاد السومريين بآلهة شبيهة بالإنسان لكنها خالدة ومتفوقة عليه، ولا تُرى بالعين، مسؤولة عن عملية الخلق، وتقود الكون وتدبّره، وكل واحد منها مسؤول عن إدارة جزء من الكون.

فهو إذن يكتفي بتشبيه الآلهة بالإنسان وينفي إمكانية رؤيتها بالعين، كما أن اتصافها بالخلود كاشف عن كون الآلهة ليست من وفي عالمنا الذي نعيش فيه وعاش فيه السومريون، وإنما هي من وفي عالم آخر؛ لأنه - أي عالمنا الذي نحن فيه - فانٍ ولا خلود فيه وأيامه معدودة.

---

١. أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ٣٤١.

[... أما أبناء البشر فأيامهم معدودات ،
وكل ما عملوا هواء عبث] [١].

وفي كتابه "من ألواح سومر" يرى كريمر أنّ الآلهة التي يعتقد بها السومريون (كالبشر يريدون ويدبّرون ويعملون ويأكلون ويشربون ويتزاوجون ويؤسسون الأسر ويعولون الأسر الكثيرة العدد، وكانوا يحسون بالأحاسيس والعواطف البشرية وفيهم أيضاً صفات الضعف البشري) [٢].

د. كريمر رغم ذكره الصفات التي يتمتع بها الآلهة من أكل وشرب وزواج وعواطف لا زال متردداً في إثبات بشرية قسم منها لا أقل وإمكانية تواجدها في عالمنا. لكنه ليس بوسعه إنكار أنّ (زيوسودرا - اوتو نبشتم - نوح) - وفق النصوص - تمكّن أخيراً - بعد الطوفان - من الدخول إلى مجمع الآلهة مع أنه إنسان، وأنّ جلجامش السومري (الرجل الذي سيولد أسرة بحسب أحد معاني اسمه) إنسان أيضاً لكن ثلثيه إله وثلثه المتبقي بشر، فاتخذ قراراً حازماً بالسفر إلى جده نوح (عليه السلام) في رحلة شاقة ومضنية؛ طلباً للخلود ومعرفة سر الحياة مع الآلهة والخلود معها للأبد بعد التخلص من ثلثه البشري.

[..... فنادى "الرجل العقرب" زوجته وقال لها:
إنّ الذي جاء إلينا جسمه من مادة الآلهة ،
فأجابت زوجة "الرجل العقرب" زوجها وقالت:
أجل إنّ ثلثيه إله وثلثه الآخر بشر ،
ثم نادى "الرجل العقرب" جلجامش
وخاطب نسل الآلهة بهذه الكلمات:
مالذي حملك على هذا السفر البعيد ؟
وعلام قطعت الطريق وجئت إلي عابراً البحار الصعبة العبور ،
فأبن لي القصد من المجيء إلي
فأجابه جلجامش قائلاً:
أتيت قاصداً أبي (اوتو - نبشتم) (نوح)

---

١. من خطاب جلجامش لأنكيدو، كما سيأتي في بحث الملحمة.
٢. صموئيل كريمر، من ألواح سومر: ١٦٩.

الذي دخل في مجمع الآلهة
جئت لأسأله عن لغز الحياة والموت ...] [١].

وباستحضار ما انتهينا إليه في هذا البحث وما تقدم، صار بوسعنا تلخيص عقيدة السومريين بالآلهة بالآتي:

١- الاعتقاد بإله مطلق تخضع له بقية الآلهة وتعمل تحت إمرته وتوجيهه.

٢- الاعتقاد بآلهة (وسائط في الخلق والتدبير وإدارة شؤون الكون والخلق عموماً) خالدة لا يمكن رؤيتها بالعين، وهي ليست من عالمنا.

٣- الاعتقاد بآلهة (في الخلق) يمكن أن تكون من عالمنا بل ويمكن أن تكون بشراً مثلنا بالتحديد، ارتقت في مدارج الكمال واستحقت مقام الألوهية في الخلق.

إنّ اعتقاد السومريين بإمكانية بلوغ الإنسان مقام الألوهية في الخلق وإمكانية لحوقه بمجمع الآلهة (المقيدة، المفتقرة) في العالم الآخر (السماوي) والتواصل معها يفتح أمامنا نافذة لتوقع أن يكون الإنسان - وفق الاعتقاد السومري - سماوي بحسب أصله وموطنه الأساس، وهذه بالذات حقيقة دينية أصيلة.

(نحن سماويون، أصلنا سماوي، وخلقنا في السماء الأولى وكان امتحاننا الأول فيها وهو امتحان الذر الذي ذكر في القرآن، فنحن أنفس وليس أجساداً أرضية فقط .....) [٢].

تنبيهات:

١- لست هنا بصدد تشخيص أنّ الإله (آن) أو (مردوخ) أو سواهما من الآلهة الوارد ذكرهم في النصوص السومرية أو البابلية لاحقاً هو الإله المطلق في عقيدة الإنسان الرافديني (السومري أو البابلي)، بقدر ما أردت الإشارة إلى أنّ فكرة الإله

١. انظر: طه باقر، ملحمة جلجامش: ٧٥ - ٧٦.
٢. أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ١٣٨.

المطلق (الواحد) والإله في الخلق (وهو متعدد بطبيعة الحال) واضحة جداً في الفكر اللاهوتي السومري، وهي - أي الفكرة من حيث الأساس - من صميم الدين الإلهي.

قال تعالى: [فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا]، [فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ]، [وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ] [١].

٢- سبق وأن قدمت، إنّ إيمان السومريين بعقيدة الألوهية المطلقة والألوهية في الخلق لا يعني بحال أنّ جميع من / ما أضفوا عليه صفة الألوهية - بحسب نصوصهم المكتشفة للآن أو التي سيتم كشفها مستقبلاً في هذا المجال - يستحق الوصف حقيقة، فسنّة التحريف التي ما سلمت منها رسالة سماوية جرت عليهم بكل تأكيد كما جرت في الرسالات السماوية اللاحقة. فالمسلم أو المسيحي أو اليهودي - أو سواهم من أتباع الديانات - الذي يؤلّه هواه أو الدنيا أو حاكماً أو شخصاً معيناً أو صنماً أو حتى ولياً من أولياء الله ألوهية باطلة موجود دائماً، فيكون حال اعتقاد بعض السومريين من حيث التحريف والبطلان حال هؤلاء دون أي فرق.

٣- إنّ مشكلة تعدد الآلهة عند السومريين أهون بكثير من اعتقاد المسيحيين بالثالوث؛ فكل من الآب والابن وروح القدس - بنظرهم - يتصف بالغنى المطلق وله كينونة وشخصية متمايزة، في الوقت الذي يعترفون بأنّ الله إله مطلق واحد غير مركب ! في حين أنّ النصوص السومرية تضفي على الآلهة المتعددة صفات الفقر والحدوث بشكل واضح (كالأكل والشرب والزواج والصعود والهبوط ونحو ذلك)، وبالتالي فهي تنفي عنها صفة الألوهية المطلقة التي تحصرها بإله واحد، أو لا أقل لم تصرح أو تتبنّى - رسمياً - فكرة تعدد الآلهة المطلقة كتصريح الكنيسة بعقيدة الثالوث رسمياً.

(كل ما يُألَه له عند السومريين فهو إله، فالدنيا إله، والأنا إله، والجماعة إله، والصالحين المقدسين آلهة، لهذا فيمكننا أن نُبدِّل كلمة (إله) بالأنبياء أو الصالحين أو الدنيا أو الأنا ونتدبر النص ونرى الحكمة التي يزخر بها النص:

---

١. الآيات: سورة النازعات، آية ٥؛ سورة المؤمنون، آية ١٤؛ سورة الذاريات، آية ٤٧.

"وفتح جلجامش فاه وقال لانكيدو:
يا صديقي ، من الذي يستطيع أن يرقى أسباب السماء ؟
والآلهة (الصالحين) وحدهم هم الذين يعيشون إلى الأبد مع شمش ،
أما أبناء البشر فأيامهم معدودات ،
وكل ما عملوا هواء عبث".

وفي القرآن: "وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً") [١].

٢/٢- السومريون وحاكمية اللّه:

حاكمية الله تعني باختصار: أن يكون مخطط التشريع إلهي ومن يقوم بتنفيذه رجل منصّب من قبل الله سبحانه، يتفرّع عن ذلك أن لا شرعية لمن يتولّى حكم الناس وإدارة شؤونهم ما لم يكن مختاراً ومنصّباً من الله،

الاعتقاد بحاكمية الله أساس ترتكز عليه الأديان السماوية كلها دون أدنى شك، وبه افتتحت الرسالات السماوية مشروعها الإلهي مع الإنسان، قال تعالى: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً" [٢]. ثم تلا آدم (عليه السلام) في الخلافة الإلهية رجال اختارهم الله ونصّبهم ولم يخلُ زمن من واحد منهم ولن يخلو حتى الزمن الأخير.

السومريون آمنوا بهذه العقيدة بشكل واضح، وهو ما أكدته الكثير من نصوصهم، وهذه بعضها:

١- في مقطوعة سومرية عنوانها: "انكي ونظام العالم" يقدّر "انكي" مصير بلاد سومر على الوجه الآتي:

[يا سومر يا أيها البلد العظيم بين جميع بلدان العالم ،
أنت مغمور بالنور الثابت الراسخ ،

---

١. أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ٣٨٢.
٢. سورة البقرة، آية ٣٠.

الذي ينشر من مطلع الشمس إلى مغرب الشمس النواميس الإلهية بين جميع الناس ،
إن نواميسك المقدسة نواميس سامية لا يمكن إدراكها ،
قلبك عميق لا يسبر غوره ،
المعرفة الصحيحة تأتي بها ..... كالسماء لا يمكن أن تُمس ،
والملك الذي تلده متوج بالتاج الأبدي ،
والسيد الذي تنجبه يضع التاج على رأسه إلى الأبد.
سيدك سيد مبجل وملكك يجلس مع الإله آن على المنصة السماوية ،
إن ملكك هو الجبل العظيم .....] [١].

٢- ورد في شريعة الملك السومري "أور - نمو" مؤسس سلالة أور الثالثة ما يلي:

[بعد أن خلق العالم، وبعد أن تقرر مصير بلاد "سومر" ومصير مدينة "أور"، عيّن الإلهان "آن" و"إنليل" الاله القمر "ننا" ملكاً على مدينة "أور". ثم اختار هذا الإله بدوره "أور - نمو" ليحكم بلاد سومر ومدينة "أور" بصفته نائباً عنه يمثله في الأرض] [٢].

٣- في "أثبات الملوك السومرية" وهو سجل يرجع إلى زمن سلالة أور الثالثة، عنونه جامعوه بـ (الملوكية = Nam-Lugal بالسومرية) يذكر السلالات الحاكمة في سومر من أزمان ما قبل الطوفان، ورد فيه: [هبطت الملوكية من السماء فكانت "أريدو" مركز الملوكية] [٣].

٤- في ترتيلة خاصة بـ "انليل":

[..... يا انليل ! إن الراعي الذي شملته بعين رضاك ،
ودعوته ورفعت شأنه ومقامه في البلاد ...
هو الذي يقهر البلاد الأجنبية ويطرحها أرضاً متى أزمع القتال ، .....
"إنليل" الراعي الجليل الدائم الحركة.
هو الراعي القائد لكل حي (الملك)،

---

١. صموئيل كريمر، من ألواح سومر: ١٧٩.
٢. المصدر نفسه: ١١٩.
٣. طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: ١/ ٣١٨.

لقد أوجد إمارته ، ووضع التاج المقدس على رأسه] [١].

٥- إحدى الشخصيات المهمة التي ركزت النصوص السومرية الضوء عليها هو زيوسودرا (نوح)، ووصفته بالملوكية بتنصيب من السماء:

[الملك زيوسدرا ،
سجد أمام آن" و "انليل" ،
واصطفى "آن" و "انليل" زيوسدرا ،
ووهباه الحياة مثل إله ،
لقد أدخلا فيه النفس الخالد مثل إله ، ....] [٢].

٦- أيضاً: ورد في ملحمة جلجامش، خطاب أنكيدو لجلجامش:

[إنك الرجل الأوحد ،
أنت الذي حملتك أمك ،
ولدتك أمك ننسون .....
ورفع أنليل رأسك عالياً على الناس ،
وقدر إليك الملوكية على البشر] [٣].

وتوجد نصوص أخرى كثيرة، وجميعها يؤكد أنّ السومريين يعتقدون بالتنصيب الإلهي والسماوي للملوك والحكام.

أضف إلى ذلك: تصريح الباحثين وعلماء الآثار يؤكد الحقيقة المشار لها أيضاً، وكمثال لذلك سأنقل بعض ما قاله د. كريمر بهذا الخصوص:

• (وكان الملوك والحكام يتباهون ويفخرون بأنّ الإله "إنليل" هو الذي منحهم "ملوكية البلاد" وجعل البلاد مزدهرة من أجلهم وهو الذي أعطاهم جميع البلدان

١. صموئيل كريمر، من ألواح سومر: ١٧٧.
٢. المصدر نفسه: ٢٥٨.
٣. طه باقر، ملحمة جلجامش: ٥٠.

وقدّر لهم أن يفتحوها بقوتهم، وكان الإله "إنليل" هو الذي يعلن اسم الملك ويعطيه "صولجانه" وينظر إليه بعين الرضا) [١].

• عن الحكم في مدينة "كيش" السومرية، يقول: (هي المدينة التي تسلمت "الملوكية"، كما جاء في الأساطير السومرية، من السماء بعد الطوفان فوراً) [٢].

• (... غير أننا يجب أن نؤكد هنا أن الحاكم السومري لم يكن حاكماً مستبداً، ولا طاغية متقلباً شرساً؛ فملك مثل "شولجي" كان على معرفة تامة بأنه لم يكن غير خليفة للآلهة وممثل عنها، مسؤول أمامها عن ازدهار البلاد ورفاهية العباد) [٣].

واضح أنّ فكرة خلافة الله وتمثيله في الأرض شائعة بين السومريين كمعتقد لإثبات شريعة الحاكم. نعم، ما يحصل عادة - سواء في أزمنة السومريين أو من تلاهم بل وإلى يومنا هذا - هو أن ينتحل شخص غير منصب من الله هذا المقام ويقصي الخليفة والملك المنصب من قبل الله ظلماً.

بل إنّ الاعتقاد بالتنصيب الإلهي لا يقتصر على السومريين فحسب وإنما ورثه البابليون عنهم، ففي شريعة الملك البابلي حمورابي ورد أنّ "الملك" يمتلك السلطة من الرب "المالك الأكبر":

(... ووفقاً لشريعة حمورابي كان الملك يأتي في رأس الدولة، فهو الذي امتلك السلطة من الرب وهو المالك الأكبر للأراضي) [٤].

ملاحظة: سبق وأن نوّهت أنّ اعتقاد السومريين بالتنصيب الإلهي للملك والحاكم لا يعني أنّ جميع من أسبغوا عليه صفة "الألوهية" في نصوصهم مستحق لها فعلاً، فهناك من ادّعى "الألوهية" أو "الملك" كذباً، وهناك من نازع الملك المنصب من قبل الله سبحانه، وهناك من حرّف عمداً كما يحصل عادة في سائر الديانات.

---

١. صموئيل كريمر، من ألواح سومر: ١٧٢.

٢. المصدر نفسه: ٨٣.

٣. صموئيل كريمر، طقوس الجنس المقدس عند السومريين، ترجمة: نهاد خياطة.

٤. ك. ماتفيف وأ. سازونوف، حضارة ما بين النهرين العريقة: ٨٥.

ويبقى أنّ السبب الذي دفعنا لبحث مسألة "الحاكمية" هو بيان أنّ السومريين يؤمنون بحاكمية الله والتنصيب الإلهي بشكل عام كما هو المعتقد الحق في جميع الأديان الإلهية.

(..... وصحيح أنّ بعض ملوك سومر هم مجرد ملوك مدّعين للتنصيب الإلهي، ولكن ما يهمنا هو أنّ السومريين عموماً كانوا يؤمنون بالتنصيب الإلهي، ويؤكد هذا الأمر ما وصلنا مكرراً في الألواح الطينية من أنّ الملوك هم من سلالة الآلهة وأنّ الآلهة تعيّنهم، وهناك قصة نقلها القرآن تمثل منازعة حدثت في سومر أو بلاد ما بين النهرين بين أحد الملوك المدعين الملك مع إبراهيم الخليل (عليه السلام) الملك المنصب من الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وعموماً، يمكن مراجعة النصوص السومرية والأكادية والبابلية لنجد أنّ هذا الأمر واضح في كثير من النصوص، وأنهم كانوا يعتقدون أنّ المُلك تنصيب إلهي، أي كما في عقيدة الدين الإلهي الصحيحة التي في التوراة والإنجيل والقرآن، وهذا يُبيّن بوضوح أنّ السومريين قد ورثوا الدين الإلهي القديم وكانوا ملتزمين بتعاليمه وأهمها النواميس المقدسة ومنفذها، ولكن لما تقادم عليهم الزمن حصل الشيء الذي يحصل دائماً وهو التحريف للدين الإلهي، واغتصاب الملك الإلهي، واضطهاد الملك المنصَّب من الله ....) [١].

وكمثال للتحريف في معتقد "الحاكمية" الإلهي، يقول د. كريمر:

(في هذه الفترة المتدهورة من أحوال "لجش" السياسية والاجتماعية اختار الإله "ننجرسو" إله المدينة الحامي، على ما يخبرنا به مؤرخنا السومري، الحاكم الجديد الذي كان يخشى الآلهة "أوروكاجينا" من بين جموع مواطني "لجش" وأمره بإعادة تطبيق "القوانين الإلهية" التي تركها أسلافه وأهملوها. والتزم "أوروكاجينا"

١. أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ٣٩٦ - ٣٩٧.

بكلمات "ننجرسو" ونفذ أوامر الإله تنفيذاً كاملاً، فمنع الممارسات السيئة كالاستحواذ على الحمير والأغنام والشياه وأماكن صيد السمك العائدة للمواطنين، ومنع فرض دفع الأموال إلى القصر بطرق مختلفة، ...) [١].

هذا الكلام، إضافة إلى أنه يؤكد اعتقاد السومريين بحاكمية الله، يشير أيضاً إلى وجود فترات يحصل فيها انحراف عقائدي في المجتمع يؤدي إلى وصول حاكم غير منصب من قبل الله إلى سدة الحكم فينتشر في وقته الظلم والجور والفساد، على أمل مجيء ملك إلهي عادل يقيم الانحراف ويعيد الأمور إلى نصابها الصحيح.

هل يؤمن السومريون بالديمقراطية ؟

أورد د. كريمر مثالاً اعتبره أول ممارسة ديمقراطية في الحكم لدى الإنسان، حصل ذلك في سومر في الألف الثالث ق.م:

(في أي جزء من العالم انعقد أول "برلمان" معروف لدى الإنسان ؟ ..... إنّ ما يثير الغرابة والدهشة أن يكون ذلك البرلمان العتيق قد عقد جلساته في ذلك الجزء من آسيا ... في تلك البلاد المعروفة قديماً باسم "سومر" الواقعة شمال خليج فارس بين نهري دجلة والفرات، ..... وعلى هذا فليس من المستغرب إذا كان السومريون قد أحرزوا في حقل السياسة أيضاً تقدماً مهماً، وأنهم بوجه خاص ساروا في الخطوات الأولى نحو الحكومة الديموقراطية بالهيمنة على سلطات الملوك والاعتراف بحقوق المجالس السياسية) [٢].

لكن الصحيح أنّ نظام الحكم السومري - بحسب الوارد في نصوصهم - لم يكن ديموقراطياً، وقد أشرت في الفقرة السابقة إلى مجموعة من النصوص التي تؤكد اعتقاد السومريين بحاكمية الله والتنصيب الإلهي عموماً. نعم، يمكن القول بأنّ نظام الحكم السومري إلهي لكن ظهرت منه نسختان عند السومريين:

---

١. صموئيل كريمر، السومريون: ١١٠.

٢. صموئيل كريمر، من ألواح سومر: ٨٢ - ٨٣.

الأولى: النسخة الأصلية لنظام الحكم القائم على التنصيب الإلهي للملك أو الحاكم سواء كان التنصيب مباشراً من الله سبحانه أو من قبل خليفته "الله في الخلق"، وهو النظام الذي مارسه خلفاء الله في أرضه (أو نائب يمثل الله في أرضه على حد تعبير النص السومري المتقدم) كنوح (عليه السلام) "زيوسودرا الملك"، وهو النظام الذي لم يكن الحكم بحدّ ذاته هدفاً له بقدر ما كان يهدف إلى تحقيق ما يريده الله سبحانه وضمان العدل في البلاد وإنصاف المظلومين.

الثانية: النسخة المحرّفة من نظام الحكم السومري التي وجدت طريقها إلى السومريين بمرور الزمن إثر الابتعاد عن التعاليم الدينية الصحيحة التي بثها أنبياء الله في سومر، وإضفاء صفة "الألوهية" على أشخاص أو جهات باطلة أُعطيت صلاحيات - هي بالأصل من اختصاص الله وخليفته الحقيقي - ومنها صلاحية تعيين الملك والحاكم.

(إنّ نظام الحكم السومري هو نظام ورثوه عن نوح (عليه السلام) وعن الأنبياء كما ورثوا الدين الإلهي، فقد كان لديهم نظام حكم إلهي محرَّف كما كانوا أصحاب دين إلهي محرَّف، فنظام الحكم السومري لم يكن نظاماً دكتاتورياً ولا نظاماً ديمقراطياً بالمعنى الديمقراطي الغربي المعروف اليوم.

في نظام الحكم السومري كان هناك ملك تُعيّنه الآلهة. كما أنّ في نظام الحكم الإلهي ملك أو حاكم يعيّنه الله، ومهمة هذا الحاكم هي تحقيق إرادة الله وتطبيق قانون الله وإنصاف المظلومين، فهناك هدف من تعيين الحاكم الإلهي هو ليس الحكم بحدِّ ذاته، ...) [1].

إنّ إنشاء نسخة ثانية محرّفة لنظام الحكم الإلهي والتي تؤدي - بكل تأكيد - إلى إزواء الخليفة الإلهي الحقيقي وإبعاده وتعطيل دوره، لم يكن أمراً حصل عند السومريون كشعب متدين فقط، بل هو أمر موجود دائماً، وها هي نسخة المسلمين المحرفة في الحكم ماثلة أمام الجميع، والتي أدت إلى إجلاس علي (عليه السلام) خمسة وعشرين عاماً في داره ومهّدت لقتل ولده الحسين (عليه السلام) وأهل بيته

١. أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ٣٩٥.

وسبي نسائهم في واقعة كربلاء الأليمة، وبالمقابل سمحت لبني أمية ومن شاكلهم باعتلاء سدة الحكم وقيادة المسلمين !

وعلى أي حال، فالنصوص السومرية أشارت إلى النسختين معاً، حتى كأنها بدت تحوي مفارقة غريبة، فالنصوص من جهة اعتبرت زيوسودرا (نوح عليه السلام) ملكاً عيّنته الآلهة، كما عيّنت "أوروكاجينا" الذي أخذ على نفسه ميثاقاً وعهداً بأنه لن يسمح بأن يقع اليتامى والأرامل فريسة لظلم الأقوياء [١]، وعيّنت كذلك "أور - نمّو" صاحب الشريعة التي تهدف إلى ضمان العدل في البلاد والعمل على إصلاح أحوال الناس، ومن جهة أخرى اعتبرت - أي النصوص السومرية - الحكام الفاسدين والظالمين معيّنون من قبل الآلهة أيضاً رغم أنّ السومريين عانوا من ظلمهم وفسادهم وحروبهم الجائرة !

المفارقة التي لم يتمكن علماء الآثار من إدراكها أمثال د. كريمر وزملائه؛ لعدم اعتقادهم بحاكمية الله أو لأن بعضهم كان ملحداً أصلاً، صار بالإمكان حلها الآن بما أوضحه السيد أحمد الحسن:

(العلاقة بين السومريين وحاكمية الله أمر لم يكن لكريمر ولا لكثيرين من علماء الآثار غيره أن يدركوه، لأنهم إما لا يعتقدون بحاكمية الله، أو ملحدون يعتقدون أنّ الدين ابتدعه السومريون، والتوراة والقرآن مجرد عملية استنساخ للقصص السومرية الخيالية - بنظرهم - كقصة الطوفان، ولهذا فهم عندما وجدوا أنّ الملك السومري يعرض أمر الحرب على مجلسين للشورى حكموا وجزموا أنّ ما يمارسه السومريون ديمقراطية تشبه الديمقراطية الغربية اليوم، في حين أنّ ما كان يمارسه السومريون ليس الديمقراطية الغربية أبداً، ولا علاقة لممارستهم بالديمقراطية الغربية، حيث إنّ هناك نصوص سومرية كثيرة تؤكد أنّ الحاكم يأخذ شرعيته من التنصيب الإلهي) [٢].

---

١. انظر: صموئيل كريمر، من ألواح سومر: ١١٢.

٢. أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ٣٩٤ - ٣٩٥.

على أنّ الإيمان بحاكمية الله والتنصيب الإلهي لا يعني عدم وجود مجالس سياسية تؤدي أدواراً معينة تحت إشراف خليفة الله، كما أنها لا تعني أن يباشر خليفة الله الحكم بنفسه بالضرورة.

(... فنظام الحكم الإلهي يمكن أن يتحقق حتى بإشراف الحاكم المعيَّن من الله على التطبيق ومراقبة التطبيق والتدخّل للتصحيح عند وجود توجّه للخطأ، وليس من الضروري أن يقوم بالحكم بنفسه ليتحقق الهدف من تعيينه) [١].

وأيضاً: ما بيّناه يمكن أن يفسر ظاهرة انفصال الحكم عن المعابد بعد أن كان المعبد مكاناً للحكم ومركزاً إدارياً له في فترة مبكرة من حياة السومريين.

(في فترة مبكرة من العصور التاريخية كان مفهوم المعبد مكاناً للحكم ومركزاً إدارياً للكهنوتية الحاكمة. بعد ذلك حدث انفصال هام بين المعبد والدولة لأن الملك أصبح له سكن خاص به يؤمّن كما يفترض متطلبات النشاط السياسي والاحتفالي) [٢].

فالمسألة تندرج أيضاً تحت إطار الإيمان بحاكمية الله التي تناسب أن تكون دار العبادة مكاناً للحكم والقضاء وإدارة شؤون الناس كما كان يفعل الإمام علي (عليه السلام) في مسجد الكوفة أيام حكمه، ولكن غيره من الحكام المتسلطين غير المنصبين من الله فأكيد أنهم يختارون القصور الفارهة مكاناً يباشرون منه حكمهم للبلاد والعباد.

٣/٢ـ قضايا من صميم الدين السومري:

لأن البحث مبني على الاختصار، سأختار بعض المضامين الدينية التي وردت في الألواح الطينية السومرية، وهي أكثر من كافية للحكم على أنّ ما كان يتعبّد به السومريون هو دين إلهي وصلهم من أنبياء الله، وإن كان طاله التحريف في مفاصل

١. أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ٣٩٥.

٢. سيتون لويد، آثار بلاد الرافدين: ١٧٠، ترجمة: محمد طلب.

عديدة منه كسائر الديانات الإلهية. فلم تقف الديانة السومرية عند قصة الخلق والتكوين والحاكمية الإلهية، وإنما تعدّت ذلك وبيّنت قضايا أخرى تعتبر من صميم الدين الإلهي ومكوّناته.

٢/٣/١- رضا الله ومحبته:

الإنسان السومري كان يهمه تحصيل رضا الله بشكل كبير جداً، بل كان يعتبره مصدر كل خير، وفي نفس الوقت يعتبر فقدان ذلك الرضا سبباً لجميع المتاعب التي تعترضه في حياته.

(كان مصدر كل خير للرجل رضى إلهه عنه وكان فقدان هذا الرضى أصل كل المتاعب. ... وتحوي مزامير التوبة الاعتراف بالخطيئة المعروفة أو غير المعروفة وتنتهي أحياناً بأناشيد المديح:

"مولاي! إن آثامي كثيرة وذنوبي فظيعة
إلهي! إن آثامي كثيرة وذنوبي فظيعة .....
ألا فليخفف الغضب في قلب مولاي
ليهدأ الاله الذي أعرفه أو لا أعرفه
لتهدأ الآلهة التي أعرفها أو التي لست أعرفها") [١].

(يتضح من النصوص المسمارية ذات المضامين الدينية والفلسفية أن الفرد في بلاد سومر كان يهمه جداً نيل رضا الآلهة ومحبتها، لأنه كان الوسيلة الوحيدة والمضمونة لتمتعه بحياة سعيدة وعمر طويل. وعلى العكس من ذلك تماماً فإذا ما أدار الإله ظهره عن عبده وابتعد عنه، كان ذلك نذيراً بحلول غضبه ونزول البؤس والشقاء على عبده) [٢].

---

١. ديلا بورت، بلاد ما بين النهرين: ١٦٨ - ١٦٩.

٢. فاضل عبدالواحد علي، من سومر إلى التوراة: ٢٦٢.

٢/٣/٢- الذنوب سبب البلاء ولابد من شفاعة:

يعتقد السومريون أنّ ذنوب الإنسان وخطاياه سبب بلائه ومصائبه، ولا يوجد إنسان بلا خطيئة.

(كان الحكماء السومريون يعتقدون ويعلمون تلك العقيدة، وهي أن مصائب الإنسان وكل ما يحلّ به من بلاء إنما هو نتيجة ذنوبه وخطاياه وإنه لا يوجد إنسان بلا خطيئة) [١].

ثم إنّ المعذَّب لا سبيل له لخلاصه من محنته وعذابه إلا (أن يمجّد إلهه دوماً ويواصل البكاء في حضرته حتى يبدأ بالإصغاء إلى دعواته بشيء من العطف. وكان الاله المعني بذلك هو إله المعذب الشخصي، أي الإله الذي كان ممثلاً للفرد وشفيعاً له في مجمع الآلهة وفقاً للعقيدة السومرية السائدة) [٢].

عقيدة السومريين هذه إذا أردنا عطف الشواهد الدينية من القرآن الكريم أو الكتاب المقدس لرأيناها متوفرة بكثرة، منها:

[وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ]. [وَلأَجْلِ ذُنُوبِنَا قَدْ دُفِعْنَا نَحْنُ وَمُلُوكُنَا وَكَهَنَتُنَا لِيَدِ مُلُوكِ الأَرَاضِي لِلسَّيْفِ وَالسَّبْيِ وَالنَّهْبِ وَخِزْيِ الْوُجُوهِ]. [الْجَمِيعُ أَخْطَأُوا وَأَعْوَزَهُمْ مَجْدُ اللهِ] [٣].

٢/٣/٣- الخوف من المعبود والصلاة من أولى الواجبات الدينية:

الخوف من الله والتوجّه إليه بالدعاء والصلاة والتوسل طلباً للمغفرة من أولى الواجبات الدينية عند السومريين.

[... بما إنك يا إلهي فائق الحلم ، نحو ألوهيتك استدرت ،

---

١. صموئيل كريمر، من ألواح سومر: ٢٠٤.

٢. صموئيل كريمر، السومريون: ١٦٨.

٣. مصادر النصوص تباعاً: سورة الشورى، آية ٣٠؛ سفر عزرا: ٩/ ٧؛ رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية: ٣/ ٢٣.

ولأنك تعرف كيف تغفر ، فتّشت عنك.
ولأنك تنظر بعين العطف ، تأملت وجهك ،
ولأنك رحيم ، أنا هنا واقف أمامك !
أنظر إليّ برفق ، استمع صلاتي !
وليهدأ قلبك من أجلي إذا ما كان غاضباً ،
حلّ خطاياي وأخطائي ، (بدّد) تقصيري !
وليهدأ دونما تأخير غضب ألوهيتك ضدي ...] [١].

(كان أول واجب في الدين هو الخوف من المعبود. ... وكان الواجب الثاني في الدين هو الدعاء أو الصلاة والتضحية:

"قدم الخضوع كل يوم لإلهك
التضحيات والصلوات والبخور الواجب
ليكن قلبك نقياً أمام ربك
إن هذا هو ما يرضي المعبود
إن أنت قدمت التوسل والدعاء والصلاة والسجود في كل صباح فإنه سيمنحك كل الكنوز
وسوف تزدهر أيامك بفضل إلهك
وبعقلك راع اللوحة:
الخوف يولد الرفق أو العاطفة
والتضحية تطيل العمر
والصلاة تخلص من الإثم") [٢].

إذن، السومريون يعدّون قضايا مثل: (طلب رضا الله، والخوف منه، والتوجه إليه بالصلاة والدعاء، والتوسل به، والسجود له) من صميم دينهم وعقيدتهم، وهل الدين غير هذا ؟! ثم لو قرأنا عقيدة السومريين أعلاه وأجرينا مقارنة بينها وبين ما تدعو إليه النصوص الدينية في الأديان السماوية فهل سنجد فرقاً ؟!

[قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ]. [وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ]، [اسْأَلُوا تُعْطَوْا. اطْلُبُوا تَجِدُوا. اقْرَعُوا يُفْتَحْ لَكُمْ]، [لِذَلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: كُلُّ مَا

١. أدونيس، ديوان الأساطير - الكتاب الرابع: ١٨٤.
٢. ديلا بورت، بلاد ما بين النهرين: ١٦٢ - ١٦٣.

تَطْلُبُونَهُ حِينَمَا تُصَلُّونَ فَآمِنُوا أَنْ تَنَالُوهُ فَيَكُونَ لَكُمْ]، [اُطْلُبُوا الرَّبَّ مَا دَامَ يُوجَدُ. ادْعُوهُ وَهُوَ قَرِيبٌ]، [الْتَفَتَ إِلَى صَلاَةِ الْمُضْطَرِّ وَلَمْ يَرْذُلْ دُعَاءَهُمْ] [١].

٤/٣/٢- الرؤى الصادقة:

الكتب السماوية اهتمت بالرؤى اهتماماً كبيراً، هذا ما نجده في القرآن الكريم وفي الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، ويمكن الاطلاع على سورة يوسف أو رؤيا نبي الله دانيال ويوحنا اللاهوتي كمثال على ذلك.

رسول الله محمد (صلى الله عليه وآله) وكذلك آله الكرام اهتموا بالرؤيا وتحدثوا عن إمكانية أن يرى المؤمن رؤى - تحوي رموز الحكمة أو إخبارات معينة أو أحداثاً مستقبلية - بخلفاء الله وأوليائه الطاهرين إذا ما أخلص الإنسان وأتقى وتقدّس.

نفس هذا الاهتمام بالرؤى الصادقة وتعبيرها، نراه أيضاً لدى السومريين وخلفهم البابليين بحسب ما وصل عنهم في الألواح الطينية.

(الأحلام هي الوسيلة الأكثر مباشرة - إن لم تكن الوحيدة - مع الآلهة والتي تسمح لهم أن يوصلوا رغباتهم التي هي كأوامر لبني البشر. ... كانت الأحلام تعرّف الناس بمراد الآلهة، ولكن في العصر التاريخي كانت وسائل التنبؤات في "ميزوبوتاميا" كثيرة ومتنوعة. ولهذا رتبوها وفسروا إرهاصاتها وفقاً لقواعد خاصة وألفوا فيها رسائل قائمة بنفسها. وقد ترك لنا البابليون فصولاً كاملة عنها. وليس على المرء أن يتعلق بكل الأحلام فحلم منفرد أو عاجل لا يسترعي الانتباه، ولكن اذا تكرر الحلم أو بالأحرى حلمان متشابهان أو متممان لبعضها - ولا سيما إن حدثا بتتابع فوري أو وقعها في ليلة واحدة – فان ذلك يعتبر كإنذار يحسب حسابه، ...) [٢].

---

١. مصادر النصوص تباعاً: سورة الفرقان، آية ٧٧؛ سورة العنكبوت، آية ٤٥؛ متى: ٧/ ٧؛ مرقس: ١١/ ٢٤؛ اشعياء: ٥٥/ ٦؛ المزامير: ١٠٢/ ١٧.

٢. شارل فيروللو، أساطير بابل وكنعان: ٤٣.

(كان الآلهة يحبون أن يتصلوا بالأتقياء من الناس وأن يعلنوا إليهم ما سوف يحل بهم من أحداث عن طريق الأحلام. وحين يحزب الأمر كان الأمير أو العرّاف يلتمس هذه المنحة بالتوجه إلى المكان المقدس والنوم فيه) [١].

(..... أما كيف يتم اتصال العبد بإلهه الشخصي، أو بتعبير أصح كيف يصطفي الإله عبده من بين الناس، فالراجح أنّ ذلك يكون عن طريق الإيحاء أو الأحلام والرؤى) [٢].

٢/٣/٥- استخارة الله والتوسم:

لا زال المؤمنون بالكتب السماوية كالمسلمين والمسيحيين يؤمنون بأنّ استخارة الله أو التسّفّر القدسي - كما يصطلح عليه المسيحيون - من الدين، وعادة ما يستخير المسلمون بالقرآن الكريم، في حين يتسفّر المسيحيون بأسفار الكتاب المقدس. والأمر نفسه نراه موجوداً عند السومريين.

(ولم يكن اللجوء للعرافة يتم فقط بالنسبة للشؤون الخاصة، بل كان كذلك وقبل كل شيء يتصل بالشؤون العامة فلم يكن أمير يقبل على أمرٍ هام دون استخارة المعبود سواء أكان ذلك بأن يبدي المعبود رأيه عن طريق ظاهرة عادية أو غير متوقعة، أم - كما هو الأمر في أغلب الأحايين - بأن يلتمس السائل تدخّله بالبحث عن الرغبة الإلهية في الظواهر التي يلاحظها المنجم) [٣].

وبالنسبة للتوسم والفراسة، فقد بيّن الإمام الصادق (عليه السلام) معنى قوله تعالى: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ"، فقال: [هم الأئمة ينظرون بنور الله، فاتقوا فراستهم فيكم] [٤].

---

١. ديلا بورت، بلاد ما بين النهرين: ١٥٦.

٢. فاضل عبدالواحد علي، من سومر إلى التوراة: ٢٦٢.

٣. ديلا بورت، بلاد ما بين النهرين: ١٥٤.

٤. القاضي المغربي، دعائم الإسلام: /١ ٢٥، تحقيق: آصف فيضي. والآية في سورة الحجر: ٧٥.

وعادة ما تنتشر هذه الظاهرة بين أتباع خلفاء الله بحكم مسايرتهم للأنبياء والأولياء والتعلّم منهم، ولأن السومريين ترسّخت عندهم الثقافة الإلهية - كما عرفنا - نجد أنّ التوسم والفراسة كان حاضراً عندهم، إذ كانت هناك بعض الظواهر التي تفرض نفسها للملاحظة وتلفت نظر السومريين إليها، والتي كانوا يعدّون بعضها بشرى كما يعدون أخرى نذير سوء للبيت أو المدينة التي يسكنون فيها.

(هناك ظواهر لا يبحث عنها الإنسان بل تفرض نفسها للملاحظة وهذه الظواهر يمكن أن تكون أيضاً بشيراً بالحظ الحسن أو نذيراً بسوئه مثال ذلك الشذوذ في ولادة الأطفال أو الحيوانات ذلك الشذوذ الذي يعتبر فألاً للبيت الذي يحدث به وأحياناً للمدينة أو الولاية) [١].

(عرفنا الآن أنّ البشر خلقوا ليخدموا الآلهة وأن هؤلاء يعاقبونهم لأتفه الذنوب فعليهم أن يطيعوا رغبات السماء بكل دقة وأن يلبوا نزواتهم. كيف يعلمون إذن كي يحافظوا على هذا الوفاق ويتجنبوا غضب الآلهة ؟ وإذا ما رأوا أحلاماً - أن الآلهة يوحون ما يخطر لهم بواسطة الأحلام - فكيف يفسرونها بصورة ترضيهم، هذا إذا كان هناك أحلام فكيف إذا لم تكن ؟

الجواب: يعمدون إلى الإرهاصات والدلالات الطبيعية فهي ترشدهم إلى الحقيقة ولذا يجب الانتباه الكلي ليس إلى تغيرات القمر فحسب بل إلى شكل الغيوم، فكل حركة وكل تنقل من الزاحفة تحت العشب حتى الكواكب السابحة في ميدان النجوم تعطي إشارة لإرادة الآلهة سواء أكانت حسنة أم سيئة وهنا يظهر الفن أو العلم عبقريته فيميز إذا كانت الإرادة خيرة أم لا. ...) [٢].

السومريون كانوا يعرفون جيداً أنّ الله سبحانه يتكلّم مع عبده بكل شيء، وهي المعرفة التي ما فارقت أنبياء الله ورسله دائماً، فها هو إبراهيم (عليه السلام) يمر في أرض كربلاء وكان راكب فرساً، فعثرت به وسقط وشج رأسه وسال دمه، فأخذ في

١. ديلا بورت، بلاد ما بين النهرين: ١٥٥.
٢. شارل فيروللو، أساطير بابل وكنعان: ٢٥.

الاستغفار وقال: إلهي، أي شيء حدث مني ؟ [١]. فأكيد أنّ مثل هذه الثقافة والمعرفة الإلهية وصلت إلى السومريين من مثل هؤلاء الأطهار.

٢/٣/٦- تقديم الأضاحي:

تقديم القرابين والأضاحي كالشياه المبرأة من العيوب شعيرة إلهية وردت ضمن تعاليم الأديان الإبراهيمية، فالمسلمون - مثلاً - يفعلون ذلك ضمن مناسك الحج أو في مناسبات معينة.

هذا الأمر لم يغفله السومريين، فتقديم الأضاحي عندهم وسيلة لإدراك الغيب والتقرّب للمعبود.

(كان من الضروري لمباشرة إدراك الغيب عن طريق الكبد أن يختار حيوان مبرّأ من العيوب وأن يضحي به وفقاً للشروط المقرّرة في الطقوس والتي تختلف باختلاف ساعات النهار. في الفجر مثلاً كان المعبود على استعداد لأن يتقبل شاة وكان العرّاف يضع أمام الإله مائدة خلف الموقد ... وبعد أن ينفخ الكاهن الموقد يمسك بصاحب القربان من يده ويتلو هذه الصلاة:

"فلان عبدك" هلّا يقدّم تضحيته في ساعة الصباح !
ألا فليقدّم نفسه أمام عظمة ألوهيتك !
ألا فليكن مرضياً لعظمة ألوهيتك بفضل هذه الشاة ذات اللحم الجيد والأعضاء الصحيحة) [٢].

٢/٣/٧- الاعتقاد بالموت والعالم الأسفل:

يعتقد السومريون بأنّ الموت مصير حتمي يلاقيه كل إنسان مهما بلغت قوته وجبروته، والخلود غير متيسر فيه أبداً، على أنه لا يعني فناء مطلقاً وإنما هو انفصال الروح عن الجسد.

---

١. انظر: المجلسي، بحار الأنوار: ٤٤/ ٢٤٣.
٢. ديلا بورت، بلاد ما بين النهرين: ١٥٥.

(ولم يكن الموت في عقيدة السومريين والبابليين يشكّل فناء مطلقاً للإنسان، وإنما كان عبارة عن انفصال الروح عن الجسد) [١].

السومريون أيضاً يعتقدون بعالم الأموات (العالم الأسفل) الذي يطلقون عليه كور (Kur) وأرض اللارجعة، فروح الميت تنزل إليه بعد مفارقتها الجسد وتبقى محتجزة فيه إلى الأبد [٢].

وأبرز النصوص المسمارية في هذا الصدد هو ما يعرف بأسطورة "نزول أنانا (عشتار) إلى العالم الأسفل"، وستكون لنا وقفة معها في فقرة البحث الثالثة.

وهذا مقطع من حوار دار بين جلجامش وأنكديو حول العالم الأسفل:

[..... (فقال جلجامش) أخبرني يا صديقي ،
أخبرني بما يجري في العالم الأسفل الذي رأيت ؟
(فقال أنكيدو) سوف لا أخبرك ، سوف لا أخبرك
وإذا كان لابد من إخبارك بما يجري في العالم الأسفل
فعليك أن تجلس وتبكي ...
إن جسمي الذي كنت تلمسه عندما كان قلبك يغمره الفرح
أصبح الآن يلتهمه الدود كما لو كان ثوباً بالياً
أجل ، إن جسمي الذي كنت تلمسه عندما كان قلبك يغمره الفرح
أصبح الآن .. يملؤه التراب ،
(وعندئذ) صاح (جلجامش) يا وليتاه ! وراح يتمرغ في التراب .....] [٣].

١. فاضل عبدالواحد علي، من سومر إلى التوراة: ٢٦٦.
٢. انظر: المصدر نفسه: ٢٦٨.
٣. انظر: المصدر نفسه: ٢٧١.

٢/٣/٨- الاعتقاد بالحياة بعد الموت والجنة والجحيم:

(لقد تأكد هؤلاء من أنهم يعيشون بعد الموت ولكن في ظلام دامس وليس لهم أي ثواب، إلا إذا سلكوا السلوك الحسن في دار الدنيا، أي بالتقوى كما حدث "لأوم نابيشتي" أو بتطبيق القوانين بين الناس كما فعل حمورابي) [١].

وأيضاً أكد د. كريمر وجود إشارات في نصوص السومريين على أنّ للصالح والمستحق مصير أكثر سعادة من مصير المؤذي والشرير، بحسب قوله [٢].

٢/٣/٩- شريعة عادلة:

الدين الإلهي عقيدة وشريعة، وكما كان للسومريين منظومة عقائدية كان لديهم شريعة تهدف إلى ضمان العدل وإصلاح أحوال الناس.

يصف كريمر شريعة الملك السومري "أور نمو" فيقول:

(... وقام بالإصلاحات الاجتماعية والأخلاقية فقضى على الغشاشين وعلى المرتشين، أو كما عبرت شريعته على "ناهبي أبقار المواطنين وأغنامهم وحميرهم"، ثم أوجد نظاماً مضبوطاً للأوزان والمكاييل، ومنع "أن يقع اليتيم فريسة للثري والأرملة ضحية للقوي". وعلى الرغم من أنّ العبارة الخاصة بالغرض من وضع الشريعة مهشمة في النص إلا أنه مما لا شك فيه أن يكون الدافع على إصدار مواد الأحكام التي تعقبت تلك المقدمة إنما هو ضمان العدل في البلاد والعمل على إصلاح أحوال رعاياه. .....) [٣].

شريعة أور نمو تضمّنت أيضاً مواداً خاصة تتعلق بوجوب دفع دية محددة تعويضاً عن قطع عضو معين من الإنسان كالقدم والأنف.

---

١. شارل فيروللو، أساطير بابل وكنعان: ٣٦.

٢. انظر: صموئيل كريمر، السومريون: ٣٧٨.

٣. صموئيل كريمر، من ألواح سومر: ١١٩.

ولست الآن بصدد إثبات أو نفي أنّ أور نمو حاكم منصّب من الله وأنّ شريعته إلهية بكاملها بقدر ما أريد التنبيه إلى أنّ السومريين كانت لديهم شريعة (إلى جنب المنظومة العقائدية) تهدف إلى تحقيق العدل ورعاية اليتيم والأرملة وتنهى عن الغش والرشا ...الخ، وهذه الأمور من صميم الشرائع السماوية التي نادى بها أنبياء الله.

على أنّ "أور نمو" ليس المشرّع الأول في بلاد سومر، بل سبقه بالتأكيد مشرّعون آخرون، وهو ربما استفاد من مواد شرائعهم وأحكامهم.

(كم سيظل "أور - نمو" محتفظاً بمكانته على أنه أول مشرّع في العالم ! المرجح أنه لن يظل طويلاً، فهناك أمارات وأدلة على أنه عاش في بلاد "سومر" مشرّعون قبل أن يولد "أور - نمو" بأزمان طويلة) [١].

أيضاً: كان عند السومريين قوانين وأحكام تخص الزواج بما في ذلك الخطوبة وحقوق الأولاد والطلاق والإرث، وكان للمرأة السومرية حقوق كأهليتها للشهادة والتملك والقيام بأعمال البيع والشراء ونحو ذلك.

(... وكان يعترف بالخطوبة قانونياً طالما يقدم العريس هدية زواج إلى والد الفتاة. وتتم الخطوبة غالباً بعقد يدون على لوح طيني، ... وكانت للمرأة في بلاد سومر حقوق قانونية معينة مهمة: فكان لها أن تمتلك وتتعاطى العمل التجاري وكانت مؤهلة للشهادة، بيد أنه كان باستطاعة زوجها أن يطلقها لأسباب تافهة نسبياً، وإذا كانت عاقراً كان باستطاعته أن يتزوج من امرأة ثانية. وكان الأطفال تحت سلطة والديهم المطلقة، ... ويرث الأبناء عند وفاة الوالدين كل ثروتهما. وكان تبنّي الأطفال أمراً شائعاً، ويعامل الأبناء المتبنّون أيضاً بأقصى حد من العناية والرعاية) [٢].

١. صموئيل كريمر، من ألواح سومر: ١٢١.
٢. صموئيل كريمر، السومريون: ١٠٦.

٢/٣/١٠- سبل الكمال والرقي الأخلاقي:

الإنسان الذي خُلق على صورة الله أو المعبود وفق المعتقد السومري - كما عرفنا سابقاً - يسهم في ترسيخ فكرة أنّ الإنسان مشروع إلهي على هذه الأرض، وأنّ هناك هدفاً سامياً يكمن وراء خلقه، وإلا لماذا هو دون غيره من المخلوقات خُلق على صورة الله ؟!

وبقدر تعلق الأمر بموضوع بحثنا، أي سبل الكمال والرقي الأخلاقي التي احتوتها نصوص سومر، فيمكننا استخلاص معاني الإيثار والصبر ومحاربة الأنا والشجاعة والسعي إلى الخلود والحياة الأبدية في العالم الآخر والصداقة والإخلاص وغير ذلك من "ملحمة جلجامش" السومرية التي تعد بجدارة خارطة طريق الخلاص والإنقاذ من براثن العالم الأسفل، وسيأتي الوقوف عليها في فقرة البحث الثالثة.

(وكان السومريون، وفقاً لكتاباتهم الخاصة، يعتزون بالخير والصدق، بالقانون والنظام، بالعدل والحرية، بالاستقامة والأمانة، بالرأفة والعطف، وكانوا بطبيعة الحال يمقتون نقائضها الشر والكذب، عدم التقيد بالقانون والفوضى، الظلم والاستبداد، اقتراف الذنب والضلال، البطش وفقدان الشعور بالعطف) [١].

(على المستوى الخلقي والروحي، تكشف الوثائق على أن السومريين كانوا يقدرون ويعتزون بالخير والصدق والقانون والنظام والعدل والحرية والحكمة والمعرفة والإخلاص، وباختصار كانوا يقدرون جميع الفضائل والسجايا التي يرغب فيها الإنسان أكثر من كل شيء آخر) [٢].

وهذه ترتيلة تذكر رعاية اليتيم والأرملة والضعفاء من الناس، ومدحت فيها "نانشه" لأنها التي:

[تعرف اليتيم ، والتي تعرف الأرملة.
وتعرف ظلم الإنسان للإنسان ، إنها أم اليتيم.

---

١. صموئيل كريمر، السومريون: ١٦٤.
٢. المصدر نفسه: ٣٨٠.

"نانشه" التي تعنى بالأرملة ،
والتي تنشد (؟) العدالة (؟) لأفقر الناس (؟).
الملكة تأخذ اللاجئ إلى حجرها ،
وتجد ملجأ للضعيف] [١].

أيضاً: على مستوى النصوص السومرية المتصلة بالأخلاق توجد ثلاثة مجاميع (من النصائح الخلقية والتوجيهات وهي "تقويم الفلاح" و"ارشادات شوروباك لابنه زيوسودرا"، وثالثة يبدو أنها تتألف من نصائح روحية وخلقية ...) [٢].

أختم بهذه التوصية الأخلاقية السومرية:

"إذا ما مشيت، انتظر ! ثبّت قدميك على الأرض"، التي تذكرنا بوصية لقمان الحكيم لابنه في قوله تعالى: "وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ" [٣].

خلاصة ما تقدم:

بمطالعة ما تقدم، لا أعتقد أنّ منصفاً بوسعه أن يحكم بغير "أنّ ما كان يتعبّد به السومريون هو دين إلهي بامتياز"، وصلهم نتيجة الجهود الكبيرة التي قام بها أنبياء الله منذ يوم الإنسانية الأول على هذه الأرض وصولاً لنوح وإبراهيم (عليهما السلام). وإذا كان البعض - من رجال الدين وغيرهم - لا زال يصرّ على أنه مجرد أساطير وخرافات فليعلمنا ماذا يعني الدين عنده !

لهذا أثار السيد أحمد الحسن مجموعة من الأسئلة المهمة، وهي - كما يقال - أسئلة تحمل إجابتها معها:

(هل تساءلنا: أين ذهب تراث آدم ونوح؟!!

---

١. المصدر نفسه: ١٦٥ - ١٦٦.
٢. انظر: صموئيل كريمر، السومريون: ٣٢٠.
٣. سورة لقمان، آية ١٩. وانظر الحكمة السومرية في: السومريون - كريمر: ٣٢٣.

وأين كان هذا التراث في زمن السومريين أو الأكاديين؟!!

أين ذهب تراث الدين الإلهي الذي كان قبل الطوفان؟!!

لا يعقل أن يهتم نوح ومن معه بنقل الماعز والبقر ولا يهتمون بنقل الدين الإلهي منذ آدم (عليه السلام) في صدورهم، ولابد أنّ الإنسانية بعد نوح (عليه السلام) - ممثلة بالسومريين أو الأكاديين وورثتهم البابليين والآشوريين - كما نقلت تاريخ الملوك والمزارعين والحرفيين نقلت أيضاً تراث آدم ونوح والمثل العليا المقدسة ولو محرّفة وفي قصص تتناقلها الأجيال، لتكون النتيجة أنّ الدين السومري هو دين آدم ونوح محرّفاً ربما بعض الأحيان بتأليه كل شيء يؤله له كالدنيا والصالحين) [١].

١. أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ٣٥٠ - ٣٥١.

(٣)

الرمزية في ألواح سومر

مأساة دموزي ورحلة جلجامش نموذجاً

الخطأ الذي وقع فيه أغلب علماء الآثار - كما علماء الأديان أيضاً - هو ركونهم إلى التفسير اللغوي للنصوص السومرية في أغلب الأحيان، وإغفال الرمزية الواضحة التي انطوت عليها؛ خصوصاً ما يتعلق منها بالجانب الديني.

هذا الخطأ المنهجي كلّف السومريين الشيء الكثير؛ كلّفهم اتهامهم بأنهم أسرى أساطير وطرف نسجها ذهنهم وخيالهم، وكانت (الأساطير والطرف) هي سلوتهم ومتنفسهم الوحيد في التفكير وتفسير الظواهر المادية والروحية معاً، يتبع ذلك - بطبيعة الحال - أن يكون دينهم ومعتقدهم أسير الذهن والخيال أيضاً.

لا شك أنّ فهم أيّ نصٍ كان لا ينبغي إغفال قائله والمتحدث به، فالنص الديني مثلاً له حكمته ومنهجه الخاص به الذي يستعمله في إيصال الفكرة إلى المعنيّين بها، وقد لا يلتقي بالضرورة بمنهج التفهيم الذي نعتمده أنا وأنت في إيصال الفكرة. وعادة ما تكون النصوص الدينية مرمّزة لغايات كثيرة ليس مجال بحثها الآن.

ما أريد بيانه هنا:

إنّ فهم النصوص الدينية من خلال ظاهر اللفظ فقط وإغفال الرمزية فيها يؤدي إلى نتائج كارثية وخطيرة، وليس المحسوبين على الدين الإلهي من وقعوا في هذا المنحدر الخطير وأثبت بعضهم أنّ لله يداً وعيناً ووجهاً على نحو الحقيقة أو ألّه عبداً من عباد الله ألوهية مطلقة، بل حتى غيرهم وقع في شباك هذا الخطأ، فعلماء الآثار -

مثلاً - صوّروا سبب نواح السومريين الذي استمر آلاف السنين بـ "الخصب والجدب" اللذين يتعاقبان في السنة بحسب الفصول فيها اعتماداً على ظواهر بعض النصوص المسمارية !

وسأكتفي بعرض قصة شخصيتين عظيمتين تكرر اسمهما كثيراً في بلاد ما بين النهرين لنرى التصوّر العام الذي كوّنه العلماء والباحثون عنهما، والذي أعتبره تصوراً كلاسيكياً؛ لأنه السائد لدى الكثير من العلماء والباحثين الآثاريين والدينيين معاً، وأقارنه بتصور آخر لنفس الشخصيتين لم يغفل الرمزية في النصوص، ومن ثم نرى النتائج ومدى الفارق الكبير الذي يترتب على كلا النظرتين.

والقصتان ترتبطان بالملكين الإلهيين "دموزي" و"جلجامش".

٣/١- أنانا ومأساة دموزي:

يطرح علماء السومريات ما يسموه بـ "عقيدة الخصب" ويعتبرونها - إلى جنب عقيدة التكوين - من صلب الديانة السومرية؛ نظراً للحيز الكبير الذي شغلته هاتان العقيدتان في المصادر المسمارية.

يصوّر د. فاضل عبدالواحد هذه العقيدة: (عندما جسّد الإنسان القوى المهيمنة في آلهة تصورها قياساً على البشر في جنسين مذكر ومؤنث، فقد كان منطقياً أن يعزو كل مظاهر الخصب والتكاثر في الطبيعة بما في ذلك تكاثر الإنسان والحيوان والنبات إلى قوى الخصب الإلهية المتمثلة بالإلهة الأم "التي عرفت فيما بعد تحت اسم أنانا أو عشتار" وبإله الخصب "دموزي أو تموز". وكان منطقياً بالمثل أن يعزو أيضاً كل مظاهر الجفاف والنقص في الخيرات كاصفرار العشب وندرة الأمطار وقلة اللبن في الماشية إلى اختفاء "أو موت" إله الخصب في العالم الأسفل) [(١)].

١. د. فاضل عبدالواحد علي، عشتار ومأساة تموز: ١٦ - ١٧.

فعقيدة الخصب بنظرهم لها طرفان لتكتمل وتؤدي هدفها، هما: أنانا ودموزي.

١/١/٣- من تكون أنانا ومن هو دموزي ؟

باختصار، وبحسب علماء الآثار:

إنّ "أنانا - عشتار" هي الإلهة الأم التي عُبدت في بلاد سومر في وقت مبكر جداً، حيث وجد اسمها منقوشاً على ألواح الطين في عصر الوركاء (٣٢٠٠ - ٣٠٠٠ ق.م).

د. كريمر لا يعتبرها أنثى حقيقية، وإنما هي تجسيد انقاد إليه السومريون لضمان بقاء الإنسان وتكاثره، فهي المسؤولة عن إثارة الحب والعاطفة والرغبة الجنسية ويصفها بأنها إلهة جميلة ومغرية مرهفة وشبقة [١].

ومثله في القول بعدم تأنيث "أنانا" حقيقة ما ذكره د. شارل فيروللو إذ يقول: (يوجد الكثير من الأمثلة في تغيير الجنس - التذكير والتأنيث - بين آلهة الأساطير ولا سيما للإلهين الشمس والقمر. وبما أننا نتكلم عن عشتار فهي مؤنثة عندما تمثل نجمة المساء وهي مذكرة في مظهر آخر أي عندما تمثل نجمة الصبح) [٢].

إذن، هي ليست أنثى حقيقية والتأنيث بالنسبة لها مجازي.

من صفاتها: أنها لم تخلص يوماً ما لأيٍّ من عشّاقها رغم كثرتهم، متلوّنة متقلّبة في مواقفها تماماً كالدنيا.

(فلا غرابة إذا ما تعددت وتنوّعت صورها في التآليف المسمارية فيجدها الباحث مرة وهي امرأة مستضعفة تقع فريسة سهلة جداً بيد الرجل، وتشخص في مناسبة ثانية بدور فتاة حيرى بين حبيبين يتنافسان على حبها، وفي قصة ثالثة

---

١. انظر: د. فاضل عبدالواحد علي، عشتار ومأساة تموز: ٢٧،

٢. شارل فيروللو، أساطير بابل وكنعان: ٣٢.

بدور فتاة أحبت من تفانى في حبها ولكنها تتنكر له في آخر لحظة فتكون سبباً في مأساته) [١].

اشتهرت "أنانا" كذلك بكونها إلهة الحب والجمال والجنس، ومن صفاتها أيضاً أنها إلهة الحرب. (حب وحرب) ما شكّل بنظر العلماء تناقضاً لم يتمكنوا من تفسيره بعد بنحو أكيد. وقد برزت بعض المحاولات [٢] لحل التناقض:

- منها: تفاوت وقت ظهور "نجمة الزهرة" في السماء - التي ترمز لعشتار بحسبهم - بين المساء حيناً ووقت السحر حيناً آخر ما اكسبها صفة الازدواجية والتناقض.

- ومنها، ما احتمله د. عبدالواحد من أنّ صفة "إلهة الحرب" ربما أدخلها الجزريون إلى وادي الرافدين بعدما كان سكانه يعتقدون بأنها "إلهة الحب" فقط.

(ومن الغريب حقاً أن تجتمع إلهة الحب في شخصها مثل هذه الصفة "أي إلهة الحرب" التي تتناقض كلياً مع صفتها الأولى والرئيسة أي كونها إلهة الحب والجنس. وليس هناك من تفسير أكيد لظاهرة التناقض هذه) [٣].

لكن تناقض (الحب والحرب) يمكن تفسيره من خلال نفس النصوص الآثارية، إذ ورد في بعضها أنّ "أنانا - عشتار" عدّدت ما مُنح لها من نواميس فكان من بينها "الحب والحرب" بشكل واضح، وهذه بعض نواميسها التي وردت على لسانها:

"الملكية (إله يُعبد)، الكهانة اللاصقة بالجسم، السحر، الدعارة والعهر والبغاء، فنون الجنس، الخنجر والسيف واستلاب المدن، الثوب الأسود والملون (حزن وفرح)، الافتراء وتزيين الخطاب، الغناء، الشيخوخة، الغدر، العويل، الخداع،

---

١. د. فاضل عبدالواحد علي، عشتار ومأساة تموز: ٦١.

٢. انظر: د. فاضل عبدالواحد علي، عشتار ومأساة تموز: ٣٦.

٣. المصدر نفسه.

التمرّد، الخوف والفزع، عود حطب النار (الفتنة) والخصام، الإنجاب وتكوين العائلة، وغير ذلك" [١].

جلّ نواميس "أنانا - عشتار" - كما نرى - مخيفة ومردية للإنسان حقيقة، لذا وقف منها "جلجامش" موقف الرافض المتنمّر لما عرضت عليه الزواج:

[ففتح جلجامش فاه وأجاب عشتار الجليلة وقال: .....
أي خير سأناله لو تزوجتك ؟
أنتِ !
ما أنتِ إلا الموقد الذي تخمد ناره في البرد ،
أنتِ كالباب الناقص لا يصد عاصفة ولا ريحاً ،
أنتِ قصر يتحطم في داخله الأبطال ،
أنتِ فيل يمزق رحله ،
أنتِ قير يلوث من يحمله وقربة تبلل حاملها ،
أنتِ حجر مرمر ينهار جداره ،
أنتِ حجر يشب يستقدم العدو ويغريه ،
وأنتِ نعل يقرص قدم منتعله ،
أي من عشّاقك من بقيت على حبه أبداً ؟
وأي من رعاتك من رضيت عنه دائماً ؟ .....] [٢].

وأما دموزي (دمو: الابن، زي: الصالح - البار - المخلص) [٣]، فبحسب الباحثين فإنّ السومريين اعتبروه إلهاً يجسّد ظاهرة الخصب، ووصفته بعض نصوصهم بأنه زوج أنانا (عشتار).

ومن حيث الأصل، يرى د. كريمر - وغيره أيضاً - أنه شخصية تاريخية حقيقية وملكاً دنيوياً، إذ بموجب "ثبت ملوك سومر" يوجد اثنان من الملوك حملوا هذا الاسم، الأول: دموزي الراعي، حكم في فترة ما قبل الطوفان في مدينة "بادتبيرا" مدة ٣٦,٠٠٠ سنة (هكذا ورد في القائمة)، والثاني: دموزي صياد السمك، أحد ملوك

١. انظر: كريمر - ولكشاين: أنانا ملكة السماء والأرض: ٧٤ - ٧٨، ترجمة: د. شاكر الحاج مخلف.
٢. طه باقر، ملحمة جلجامش: ٦١.
٣. انظر: د. فاضل عبدالواحد علي، عشتار ومأساة تموز: ٢٦، ٢٩.

سلالة الوركاء الأولى، حكم بحدود (٢٧٠٠ ق.م) ١٠٠ سنة. وهذا الأخير - بنظر كريمر - هو من كُتب له أن يكون دموزي الإله المقدس على مرّ العصور.

علماً أنّ د. كريمر نفسه يعترف بأنّ سبب اختيار "دموزي" من بين من وردت أسماؤهم في "ثبت ملوك سومر" لا زال مجهولاً:

(أما لماذا بالضبط اختير "دموزي" من قبل رجال الدين السومريين المتأخرين كبطل لهذه الشعيرة والأسطورة بشكل خاص، فإنه أمر ما زال مجهولاً، ولابد أنه كان يعود على الأقل في جزئه الأكبر إلى الأثر العميق الذي تركه "دموزي" خلال حياته كرجل وكحاكم على السواء، ولكن لا توجد حتى الآن معلومات تاريخية من أي نوع كان لتأييد وجهة النظر هذه) [١].

علماء آخرون - منهم د. فاضل عبدالواحد - يرفضون بشكل قاطع ما انتهى إليه كريمر في تحديد شخصية "دموزي"؛ ذلك أنّ دموزي الوركاء لم يعرف له عمل يستحق به التأليه والاهتمام بهذا الشكل إطلاقاً، إضافة إلى أنّ د. كريمر نفسه نشر في عام ١٩٥٢ م ما يعرف بملحمة "انميركار وحاكم أرتا" - وهو سابق على دموزي الوركاء بجيلين على أقل تقدير - ورد فيها اسم "دموزي" صراحة إلى جنب أنانا التي أحبّته [٢].

وليس زمنه سابقاً بجيلين فقط، ولكن "دموزي" الصالح أشارت النصوص إلى أنّ ذكره كان متداولاً ومعروفاً حتى عند أسلاف السومريين "أصحاب الرؤوس السود":

[... في فضاء بلاد سومر وأكاد امنحيه الصولجان والنفاذ ،
حيث كان أصحاب الرؤوس السود هو راعيهم ،
كالفلاح يجعل الحقول تنتج الغلال ،
مثل الراعي يجعل حظائر الغنم متعددة الطبقات ، .....] [٣].

---

١. صموئيل كريمر، السومريون: ٦٠.
٢. انظر: د. فاضل عبدالواحد علي، عشتار ومأساة تموز: ٢٧، ١٠٥.
٣. انظر: كريمر - ولكشاين: أنانا ملكة السماء والأرض: ١٠٣ - ١٠٤.

ومهما يكن، فبين "دموزي" الصالح المقدس وبين دموزي الوركاء مجرد تشابه في الاسم فقط:

(ليس تطابق الاسم بين دموزي الإله ودموزي الملك إلا من قبيل تسمّي الملك باسم الإله، وهذا أمر شائع في الشرق القديم) [١].

والنتيجة: إنّ شخصية "دموزي" لا زالت مجهولة عند الباحثين ولم يحسم القول فيها بينهم بضرس قاطع.

٣/١/٢- الزواج المقدس:

أحد الطقوس المرتبطة بـ "عقيدة الخصب" السومرية هو زواج "أنانا" من "دموزي"، حيث يعتقد الكثير من الباحثين - بحسب بعض النصوص - أنّ زواجاً مثل هذا قد حصل وأضفوا عليه صفة القدسية. وزاد الأمر ترسيخاً أنّ نصوصاً مسمارية أكدت وجود طقوس هذا الزواج لدى السومريين كانت تُعقد في شهر نيسان من كل عام (في المعابد تحديداً) ضماناً لاستمرار أسباب الخصب والنماء، يمثّل فيه الملك الحاكم (بصفته الممثل الشرعي للآلهة) دور "دموزي"، وأما دور "أنانا" الزوجة فجرت العادة على اختيارها من بين كاهنات المعبد.

د. كريمر من جهته يرى أنّ فكرة "الزواج المقدس" بدعة ابتدعها كهنة الوركاء، ربما تزلّفاً لملكهم دموزي الوركاء "صياد السمك":

(ولعله لم يمضِ زمن على هذا التاريخ "أي سنة ٣٠٠٠ ق.م" حتى راح بعض الكهنة ورجال اللاهوت المفكرون وذوو المخيّلة في مدينة إيريك "الوركاء" يعتنقون فكرة تدخل الاطمئنان والبهجة على القلب، هي أنّ ملكهم قد أصبح عاشقاً وزوجاً للإلهة أنانا، وبذلك يشاركها قوتها وقدرتها على الإخصاب التي لا تقدر بثمن، كما يشاركها خلودها، هذا مذهبنا في كيفية ظهور طقس الزواج المقدس الذي يضم

---

١. فراس السواح، قراءة في ملحمة جلجامش، ٢٢.

دموزي، الذي يعتقد أنه كان أحد حكام ايريك المرموقين، وإلهتها أنانا الشهوانية الشهية التي تحظى باحترام عميق) [١].

وإذا استثنينا قوله الأخير في تحديد شخصية "دموزي" الذي تمّت مناقشته سابقاً، فالنتيجة - بعد رفع بدعة الكهنة - هي أنّ السومريين سيبقون محتفظين بدموزي (الابن الصالح) صاحب المأساة الكبرى كمعتقد يحيون ذكراه والنواح عليه كل عام دون أن تشوبه بدعة "الزواج المقدس".

وعموماً، كانت مراسيم الزواج "المبتدعة" تتسم بالفرح والطرب والبذخ والحبور، يكتسب فيها الحاكم الذي ينتحل شخصية "دموزي" صفة الألوهية وينعت بالنعوت الخاصة به (فهناك حقيقة معروفة لدى الباحثين وهي أنّ الملك، مهما كان اسمه الحقيقي، يصبح من خلال الطقوس الإله دموزي فينعت ويوصف بأسماء وأوصاف هذا الإله في الأناشيد والقصائد المؤلفة بالمناسبة) [٢].

وهذا أمر في غاية الخطورة ! تخيّل أنّ دموزي (الملك الإلهي والابن الصالح) يمكن أن يمثّل شخصيته في طقوس الزواج المبتدع حاكماً ربما هو في حقيقته ليس صالحاً بل وربما محارباً للملك المنصب من قبل الله، والأدهى من ذلك أنه يوصف بصفاته ويسمى باسمه في الأناشيد والقصائد، ثم تدوّن وتنقل لنا تلك القصائد ذات المشاهد الفاضحة في الألواح والرقم الطينية !

ونحن إذ سيتضح لنا لاحقاً حقيقة دموزي (الراعي الصالح) ومقامه الإلهي الشامخ وأنه ملك إلهي منصب ومختار من الله، متصف بالصلاح والتضحية من أجل إنقاذ الناس من الهلاك، نقطع بأنّ ما ورد في النصوص الآثارية من قصائد حب وغرام وتفاصيل أخرى متبادلة بين "دموزي وأنانا" لا تعني دموزي الإلهي (الراعي الصالح) في شيء أبداً، وإنما تعني من مثّلوا أدواره من ملوك وحكام في طقوس الزواج المبتدعة من قبل الكهنة كما اتضح لنا قبل قليل. ومن ثمَّ لابد أن يكون الباحث

---

١. صموئيل كريمر، طقوس الجنس المقدس عند السومريين، ترجمة نهاد خياطة.

٢. د. فاضل عبدالواحد علي، عشتار ومأساة تموز: ٢٧، ١٠٥.

الآثاري على دراية تامة من هذا الأمر ويتمكّن من الفرز بشكل علمي دقيق بين دموزي الحقيقي ودموزي المزيف (الممثل) الذي ينتحل شخصيته واسمه وصفاته.

فمثلاً: كان من بين طقوس الزواج المقدس - بحسب كريمر [١] - انتقاء "أنانا" لدموزي لمنصب ألوهية البلاد. وواضح من خلال ما ألفتنا إليه أنّ دموزي هذا الذي تنتقيه "أنانا" للملوكية والألوهية هو الملك والحاكم الدنيوي المزيف، أما "دموزي" الحقيقي (الراعي الصالح) فنفسها (أنانا - عشتار) أسلمته إلى الشياطين ليقتلوه.

وهذه أسماء بعض الحكام السومريين الذين انتحلوا دور "دموزي" في مراسم الزواج وأنشئت بحقهم القصائد [٢]:

١- الملك شولجي: ملك مدينة أور (٢٠٩٣ - ٢٠٤٦ ق.م)،
٢- شوسين: ملك مدينة أور (٢٠٣٦ - ٢٠٢٨ ق.م)،
٣- إيدين داجان: ملك مدينة إيسين (١٩٧٤ - ١٩٥٤ ق.م)،
٤- إيشمي داجان: ملك مدينة إيسين (١٩٥٣ - ١٩٣٥ ق.م).

٣/١/٣- مأساة دموزي وطقوس العزاء:

بحسب النصوص، فإنّ (أنانا - عشتار) هي من سلّمت الراعي الصالح (دموزي) إلى أعدائه الشياطين ليعذبوه ويقتلوه في مشهد مؤلم.

[..... ارتدى "دموزي" حلة فاخرة واعتلى جالساً على منصته ،
فمسكه الشياطين من فخذيه .... ،
لقد هجم عليه الشياطين السبعة كما يفعلون بجانب الرجل المريض ،
فانقطع الرعاة عن نفخ الناي والمزمار أمامه.
ثم صوبت (أي "أنانا") نظرها عليه ، ثبّتت عليه نظرة الموت ،
نطقت بالكلمة ضده ، كلمة السخط والحنق ،
وصرخت ضده بصرخة التجريم قائلة:

---

١. انظر: صموئيل كريمر، طقوس الجنس المقدس عند السومريين، ترجمة نهاد خياطة.
٢. انظر: أدونيس، ديوان الأساطير - الكتاب الأول: ١٥٤ فما بعد.

"أما هذا فخذوه"،
وهكذا أسلمت "أنانا" الطاهرة الراعي "دموزي" إلى أيديهم.
إن من رافقه،
من رافق دموزي،
كانوا مخلوقات لا يعرفون الطعام ولا يعرفون الماء،
لا يأكلون الطحين المبسوس (السويق)،
ولا يشربون الماء المقرب (المقدم قرباناً)، ...] [١].

لماذا هي ساخطة على (دموزي - تموز) كل هذا السخط وأسلمته إلى مخلوقات لا يوجد شيء اسمه رحمة أو طهارة في قاموسها ولم ينتفعوا يوماً من مائدة السماء ؟

لماذا بدت وكأنها في مواجهة شرسة معه تحتمل أمرين لا ثالث لهما؛ إما موته هو أو موتها هي، فتختار أن يموت هو لا أن تموت هي في العالم الأسفل ؟

ما ذكره علماء السومريات كسبب يوضح مشكلتها معه وسخطها عليه بالذات غير مقنع حقيقة، وبعضه لا يعدو كونه تحليلاً باهتاً لا غير، على سبيل المثال: قول الباحث آدم فلكنشتاين Adam Falkenstein [٢] بأنّ (دموزي لم يكن في الأصل إلهاً، بل رقّي إلى مرتبة الألوهية، وكان من قبل إنساناً عادياً كغيره من البشر الفانين، ولهذا لا يمكن أن يتساوى وأنانا في مرتبة الألوهية أو أن يكون لها صنواً) [٣].

يقول د. فاضل عبدالواحد: (ومهما كان السبب الذي دفع إلهة الحب أنانا إلى النزول إلى عالم الأموات، والذي ربما ستكشف عنه البحوث المسمارية في المستقبل، فإنه بكل تأكيد لم يكن من أجل استعادة حبيبها وزوجها دموزي لأنها هي التي سلّمته إلى الشياطين ليأخذ مكانها في عالم الأموات مقابل خروجها من هناك) [٤].

من جهتي، لا أعتقد أنّ صفة الحب التي تنسب إلى (أنانا - عشتار) حقيقية،

---

١. صموئيل كريمر، من ألواح سومر: ٢٧٨.
٢. آدم فلكنشتاين (١٩٠٦ - ١٩٦٦ م)، باحث لغوي ألماني.
٣. انظر: د. خزعل الماجدي، أنبياء سومريون: ١١٦.
٤. فاضل عبدالواحد علي، عشتار ومأساة تموز: ٨٤.

فمن يحب حبّاً حقيقياً لا يفعل بمحبوبه ما فعلته "أنانا" بالراعي الصالح، فلم يبقَ إلا أن يكون الحب الذي اتصفت بأنها إلهة له هو الحب المخادع والكاذب، وهو المناسب لنواميسها التي عرفناها سابقاً.

وعموماً، فقد ناح السومريون ومن تلاهم في بلاد الرافدين نياحة عظيمة على (دموزي - تموز) الراعي الصالح وما جرى عليه من مأساة كبيرة، وكانت لديهم طقوس خاصة للعزاء تتجدّد في كل عام، فإضافة للحزن والبكاء كانوا يقيمون مواكب للعزاء تُحمل فيها المشاعل، وكانوا يُجرون ما يعرف اليوم في العراق بـ "التشابيه" التي يجريها الناس في عزاء الإمام الحسين (عليه السلام).

(هناك إشارات إلى البكاء والحزن على دموزي يرد ذكرها في النصوص المسمارية. فنقرأ في ملحمة جلجامش أن البكاء كتب على عشتار من أجل زوجها تموز كل عام. كما نقرأ في التقاويم البابلية أن الحزن والبكاء على الإله كان يبدأ في اليوم الثاني من شهر "Du uzi" أي تموز وأنه كانت تقام مواكب للعزاء تحمل فيها المشاعل وذلك في اليوم التاسع والسادس عشر والسابع عشر. وكان يقام في الأيام الثلاثة الأخيرة من هذا الشهر احتفال اسمه بالأكدية "Talhimtu" يجري خلاله عرض ودفن طقسي لدمية تمثل الإله تموز) [١].

وبقدر ما كانت بدعة "الزواج المقدس" التي تعرضنا لها سابقاً مقتصرة في طقوسها على الحاكم والمعبد ورجالاته، فإنّ طقوس العزاء والنوح على "دموزي" كانت ممارسات شعبية فقط ولم تعقد يوماً ما في معابد الكهان أو قصور الحكام !

(على الرغم من الأثر الذي تركته عقيدة موت الإله دموزي في المجتمع القديم في وادي الرافدين وخارجه فإنّ الحزن عليه لم يصبح في يومٍ ما من طقوس المعبد بل ظل يقام سنوياً في نطاق الممارسات الشعبية على العكس تماماً من الزواج المقدس الذي كان له طابع الديانة الرسمية بدليل مشاركة المعبد والملك في إقامته) [٢].

---

١. فاضل عبدالواحد علي، عشتار ومأساة تموز: ٨٤.

٢. المصدر نفسه: ص١٢٥.

أجل، كأنّ الأمر لا يعني الحاكم والكاهن، وهذا يؤشر إلى مدى انحراف الاثنين معاً عن الخط الذي كان يمثّله الملك الإلهي "دموزي" بل وكان أحد علاماته المهمة.

(لم يكن إحياء ذكرى موت دموزي يقتصر على الأسطورة والغناء، بل كانت تقام أيام مخصصة للمناحات في مختلف المدائن السومرية، في أثنائها كانت تؤدى الطقوس ومراسم الحزن المنصبّة على موته) [١].

وبخصوص طريقة النوح على دموزي فيغلب عليها (طابع الحزن العميق والعاطفة الشديدة. كما يلاحظ فيها تكرار مستمر إما لصدر البيت أو عجزه. وأحياناً يتكرّر البيت الأول من المناحة بعد عدد معين من الأبيات كأن تكون ثلاثة مثلاً، ومن الأمثلة على هذا النوع من المناحات نقتبس المقطوعة التالية التي يقول فيها الشاعر السومري على لسان أنانا:

"راح قلبي إلى "السهل" نائحاً نائحاً
أنا سيدة معبد أي - أنا التي تحطم بلاد الأعداء ،
اني أنا ننسونا أم السيد (العظيم)،
اني أنا كشتن - أنا أم الفتى المقدس ،
راح قلبي إلى السهل نائحاً نائحاً
راح إلى مكان الفتى ،
راح إلى مكان دموزي ،
إلى العالم الأسفل ، مستوطن الراعي
راح قلبي إلى السهل نائحاً نائحاً
إلى المكان الذي ربط فيه الفتى ،
إلى المكان الذي احتجز فيه دموزي ...
راح قلبي إلى السهل نائحا نائحا"] [٢].

١. صموئيل كريمر، طقوس الجنس المقدس عند السومريين، ترجمة نهاد خياطة.
٢. فاضل عبدالواحد علي، عشتار ومأساة تموز: ١٢٦ - ١٢٧.

طريقة النوح هذه على (دموزي - تموز) عند السومريين ومن تلاهم في بلاد ما بين النهرين تذكّرنا بطريقة النوح على الإمام الحسين (عليه السلام) التي لا زالت قائمة عندنا في العراق، وهذا مثال لها أذكره باللهجة العراقية الدارجة:

"قلبك سفينة نوح
يا خامس أهل النَوْح
ابّحر المصايب
شفت العجايب
يا خامس أهل النوح ....."

وأما سبب كل هذا النواح على "دموزي" وتجدده سنوياً، فعلماء الآثار- بحسب تفسيرهم للنصوص الآثارية التي تحت أيديهم - يعتقدون أنّ (دموزي - تموز) يتصف بالموت والبعث سنوياً تبعاً لتغير الفصول، فلما كان "دموزي" في عقيدة السومريين يجسد ظاهرة الخصب ونماء الزرع والعشب الذي يقترن عادة بفصل الربيع فإذن سيكون هذا الفصل فترة بعثه من الموت، ولكنه يموت مجدداً ويؤخذ إلى العالم الأسفل في فترة الجدب التي تصادف فصل الصيف عادة فيبدأ النواح عليه، وهكذا يتجدد عزاؤهم عليه في كل عام !

نواح أول حضارة إنسانية بحجم "سومر" على شخصية عظيمة مثل "دموزي" سببه ظاهرة الخصب والجدب ولا شيء آخر !! هكذا يرى علماء الآثار.

(حقيقة إنّ ظلماً كبيراً يطال السومريين الذين علّموا الإنسانية الكتابة ووضعوا القوانين وأُسس العلوم، وهم أوّل من صنع العجلة ووضع نظم الحساب والجبر والهندسة عندما يصورهم د. كريمر ويتبعه بعض المختصين بالحضارة السومرية: إنهم ينوحون على شيء أُسطوري أو قصة أُسطورية هم من ألّفها، وهي مجرد تعبير عن الخصب والجدب اللذين يتعاقبان على السنة. وكأنهم شعب تعاطى كل أفراده مادة مخدرة أفقدتهم عقولهم بحيث إنهم وورثتهم البابليون ينوحون ويقيمون مجالس العزاء آلاف السنين على رمز في قصة هم ألّفوها من ألفها إلى يائها.

آلاف السنين وسكان بلاد ما بين النهرين جيلاً بعد جيل وكل سنة يصورون جثة دموزي، وكل سنة يبكون على دموزي، وكل سنة يقرؤون قصائد رثاء دموزي.

كل هذا مجرد أوهام ؟!

ومجرد قصة هم ألّفوها !!

ولأجل ماذا ؟!

لأجل التعبير عن خصب يأتي في الربيع وجدب يتبعه في فصل آخر من السنة!!!.

المفروض أن يكون هناك جواب معقول لنواح أوّل حضارة عرفتها الإنسانية وطيلة آلاف السنين على دموزي (الابن الصالح) أو تموز) [١].

٤/١/٣- حقيقة أنانا ودموزي وفق رؤية أخرى:

الرؤية التي ربما تكشف لنا من تكون (أنانا - عشتار) ومن يكون (دموزي - تموز) وترفع الغموض والتناقضات التي أحرجت الباحثين وتعذّر عليهم إجابة بعضها كما رأينا، تقدم بها السيد أحمد الحسن، وهي - كما سنرى - لم تغفل الرمزية التي ألقت بظلالها على النصوص السومرية بشكل واضح.

أولاً: أنانا - عشتار

تقدّم في وصفها أنها إلهة الحب والحرب، إنها لم تخلص لواحد من عشّاقها، تقتل من هام بها، متزينة مغرية متلوّنة متقلّبة لا أمان لها، هذه هي نواميسها التي منحت لها كما عرفنا، وهذا هو حال (الدنيا) بكل وضوح.

---

١. أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ٣٦٩ - ٣٧٠.

يصف الإمام علي (عليه السلام) "الدنيا" بأنها: [دَارٌ بِالْبَلَاءِ مَحْفُوفَةٌ وبِالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ - لَا تَدُومُ أَحْوَالُهَا ولَا يَسْلَمُ نُزَّالُهَا - أَحْوَالٌ مُخْتَلِفَةٌ وتَارَاتٌ مُتَصَرِّفَةٌ - الْعَيْشُ فِيهَا مَذْمُومٌ والأَمَانُ مِنْهَا مَعْدُومٌ - وإِنَّمَا أَهْلُهَا فِيهَا أَغْرَاضٌ مُسْتَهْدَفَةٌ - تَرْمِيهِمْ بِسِهَامِهَا وتُفْنِيهِمْ بِحِمَامِهَا] [١].

تتقلّب "الدنيا" بأهلها من حال إلى حال؛ بين حال حب ورخاء خادع وزائل، وحال حرب وموت وحزن وألم، ولكن رغم هذا فهي كانت ولا زالت تخدع الكثيرين بزبرجها وزينتها فيهرعون لعبادتها: [..... وكَذَلِكَ مَنْ عَظُمَتِ الدُّنْيَا فِي عَيْنِه - وكَبُرَ مَوْقِعُهَا مِنْ قَلْبِه آثَرَهَا عَلَى اللَّه تَعَالَى - فَانْقَطَعَ إِلَيْهَا وصَارَ عَبْداً لَهَا] [٢].

إذن، ليس غريباً أن ينخدع الكثير من سكان بلاد ما بين النهرين كالسومريين ومن تلاهم بالدنيا ويتخذوها إلهاً يُعبد.

الخصب والنماء الذي ترمز له (أنانا - عشتار) أو (الدنيا) حكاه الله سبحانه بقوله: [اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ] [٣]، لكنه نماء زائل وفي يومٍ ما يصبح هشيماً تذروه الرياح. قال تعالى: [وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا] [٤].

نحن الآن فعلاً في العالم الأسفل، ومَثَلُ "الدنيا أو أنانا أو عشتار" فيه كماء أُنزل من السماء (نزول أنانا أو عشتار إلى العالم الأسفل)، فاختلط به نبات الأرض ومنه الإنسان [وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا] [٥]، قد يبدو للغافلين أنه مثلٌ للحياة والخصب والنماء الحقيقي لكن سرعان ما يتضح للإنسان أنه زائل كزوال الهشيم الذي تذروه الرياح في يوم عاصف.

---

١. نهج البلاغة: ٣٤٨، تحقيق: صبحي الصالح.
٢. المصدر نفسه: ٣٤٨، ٢٢٦.
٣. سورة الحديد، آية ٢٠.
٤. سورة الكهف، آية ٤٥.
٥. سورة نوح، آية ١٧.

نحن الآن فعلاً في العالم الأسفل، لذا صرف الله أولياءه الصالحين عن الدنيا رغم تعرّضها لهم في كثير من الأحيان، لكنهم لم ينخدعوا بها لأنهم يعلمون جيداً حقيقتها، فتمرّدوا عليها وأبوا أن يعبدوها كغيرهم، أبوا أن يسجدوا لها، فيزداد غيظها وحنقها عليهم فتستجمع كل أهلها وأوليائها وعبّادها لحربهم والقضاء عليهم، وهذا بالضبط ما حصل مع الراعي الصالح (دموزي).

(وهكذا فإنّ عشتار - أنانا زوجة دموزي الملك سلّمته للشياطين ليقتلونه في مفارقة يصعب فهمها على من لا يعرفون معنى حاكمية الله أو التنصيب الإلهي، أو كما يُعبِّر عنها السومريون - الأكاديون "الملوكية التي نزلت من السماء". ولكنها حقيقة تكررت كثيراً في الدين الإلهي، وهي أنّ عشتار - الدنيا منقادة في كثير من الأحيان للملوك الذين لم ينصّبهم الله؛ لأنهم ساجدون وخاضعون لها، فهم يعبدون شهواتهم الدنيوية. وعشتار - الدنيا متمردة على المنصّبين من الله للحكم فيها؛ لأنهم في الحقيقة متمردون عليها. فنصيب علي (عليه السلام) كان خمس سنوات مُرّة، هاجت فيها كل شياطين الأرض لمحاربته في الجمل وصفين والنهروان، وما قرّوا حتى قتلوه في الكوفة. ونصيب الحسين (عليه السلام) الملك المنصَّب للحكم في الدنيا مذبحة لم يسلم منها حتى الرضيع) [١].

ثانياً: العالم الأسفل

وصفته النصوص السومرية بأنه عالم الأموات، عالم اللارجعة، عالم الظلام "كور"، عالم الرذيلة [٢]. ومن صفاته أيضاً: أنّ جميع الناس لهم نصيب من الوجود فيه.

(... والعالم الأسفل في معتقدات سكان وادي الرافدين مكان أبدي تقيم فيه أرواح الناس على اختلافهم: الأخيار والأشرار، الأغنياء والفقراء، العبيد والأسياد) [٣].

---

١. أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ٣٥٩.

٢. انظر: كريمر - ولكشاين: أنانا ملكة السماء والأرض: ٦٢.

٣. فاضل عبدالواحد علي، من سومر إلى التوراة: ٢٧٣.

ثم إنه في الوقت الذي تضفي النصوص الآثارية على ملوك السماء وأهلها صفات العظمة والطهر والتقديس، لكنها تنقلب تماماً لما تصف حال أهل العالم الأسفل فتصوّره بشكل تشمئز منه النفوس.

وهذا مقطع من أحد النصوص [١] التي تصور نزول (أنانا - عشتار) إلى العالم الأسفل "عالم الرذيلة"، فقد كانت النواميس فيه تقضي بأنّ من يختار الذهاب إليه لن يعود، فلما نزلت "أنانا" إليه نُطق الحكم بحقها بالموت فتحولت جثّة فاقدة للحياة، ولما أريد لها أن تحيا كان "الوسخ" والقذارة سبباً في حياة جثتها:

[..... اخرج الأب انكي من تحت أظفره وسخاً صنع منه "كوركرا" غير مذكر أو مؤنث ،
أخرج الأب انكي من تحت أظفره وسخاً صنع منه "جلاتور" غير مذكر أو مؤنث ،
أعطى "كوركرا" طعام الحياة ،
أعطى "جلاتور" ماء الحياة ،
الأب انكي قال لـ "كوركرا وجلاتور": اذهبا إلى العالم الأسفل ،
ادخلا الباب مثل الذباب ، .....
أحدكما سيرش طعام الحياة والآخر سيرش ماء الحياة على الجثة (أنانا)،
أنانا سوف تنهض ، .....
عادت أنانا إلى الحياة ، ....] [٢].

وبالرغم من أنّ النص مليء بالرمزية، لكن صار بوسعنا فهمه بضميمة ما تقدم، فالدنيا (أنانا - عشتار) فعلاً حقيقتها جثة وجيفة بسبب نواميسها التي عرفناها، يقول علي (عليه السلام): "الدنيا جيفة وطلابها كلاب" [٣]،

ولكن لأن الله سبحانه أراد لهذا العالم الذي نحن فيه (عالم الدنيا - العالم الأسفل) أن يكون دار امتحان واختبار، كان حتمياً - بمقتضى العدالة الإلهية - أن يتواجد فيه الجميع (الأخيار والأشرار، الأغنياء والفقراء، العبيد والأسياد) ليؤدوا امتحانهم، وكان لابد أن يكون خيار النجاسة والشر متاحاً كخيار الخير والطهر

١. انظر: كريمر - ولكشاين: أنانا ملكة السماء والأرض: ١٠٩ فما بعد.
٢. انظر: المصدر نفسه: ١٢١ - ١٢٤.
٣. انظر: المجلسي، بحار الأنوار: ٨٤/ ٢٨٩.

ليتحقق الامتحان فعلاً. ولما كانت الدنيا (أنانا) - بحسب نواميسها المتقدمة - تمثل دائماً طرف الشر والرذيلة كان مناسب جداً أن تعاد الحياة لجثتها بالوسخ المشار إليه في النص "كوركرا، جلاتور"؛ لأنه ملائم تماماً لحقيقتها، وهما ليسا بذكر ولا أنثى كما ورد في النص "غير مذكر أو مؤنث"، ولعله رمز إلى "متاع الحياة الدنيا الباطل والزائل".

كما أنّ "ماء الحياة، طعم الحياة" الوارد في النص لما كانا ممنوحين لـ "وسخ"، فالحياة وطعمها المرشوشين على أنانا (الدنيا) - لأجل إحيائها - لا يكون حقيقياً بكل تأكيد حتى وإن بدا لبعض المخدوعين أنه حياة، فواقعه وحقيقته وسخ ودنس مقترن بالزوال والفناء والموت المحقق في الظلام، ولهذا فرّ الصالحون من الدنيا - كما أشرت سابقاً - وزهدوا فيها واكتفوا منها بأقل القليل، كما فرّ "جلجامش" إلى جده نوح طالباً الخلود والحياة الحقيقة التي لا موت ولا دنس فيها.

متى يعي الإنسان أنّ أصله سماوي، وأنّ النعيم والخلود والحياة الحقيقية هناك حيث موطنه الأصلي لا في هذا العالم الأسفل الزائل، "الدنيا دار ممر لا مقر" كما وصفها خلفاء الله. هذه هي الحقيقة التي عرفها السومريون بفضل معلميهم الإلهيين قبل آلاف السنين وأشارت لها نصوصهم الدينية المرمزة، ولكن للأسف لا زال أكثر الناس إلى يومنا هذا يتهافتون على الدنيا ويتعاملون معها ومع عالمها الأسفل معاملة الوطن الحقيقي فتبلعهم بشره وتنادي هل من مزيد !

لا أريد التوسع أكثر في بيان "العالم الأسفل" وكونه موصوف بـ "أسفل" يعني أنّ هناك عالماً أو عوالم أعلى منه رتبة يكون فيها الخلق والتدبير، كعالم الذر الذي كنا فيه في السماء الأولى ثم أنزلنا الله منه لهذا العالم (وليس أنانا - عشتار وحدها التي نزلت فقط) لأداء الامتحان الثاني، وينتظرنا عالم موازٍ لعالم الذر اسمه "الرجعة" في قبال عالم اللاجعة. وعموماً، بحث العوالم والخلق يمكن لأي أحد التعرف عليه بالتفصيل في كتب السيد أحمد الحسن ككتاب "وهم الإلحاد" وكتاب "عقائد الإسلام".

ثالثاً: دموزي - تموز

هذا مقطع من نص سومري فيه بعض صفات الملك دموزي (الراعي الصالح):

[.... أنت راعي المزار المقدس المختار ،
أنت ، ملك أوروك الأمين ،
أنت ، مصباح مزار آن العظيم ،
في كل العادات أنت صالح ،
أن يدوم رأسك عالياً على المنصة المتكبّرة ،
أن تجلس على عرش اللازورد ،
أن يغطي رأسك التاج المقدس ،
أن ترتدي الثياب الطوال على جسمك ،
ليزخرف جسدك بالثياب الملكية ،
أن تحمل الصولجان والسيف ، .....
أنت ، العدّاء ،
الراعي المختار ،
في كل العادات أنت صالح ، .....] [١].

"دموزي" بحسب النص ملك إلهي مقدس "ملك، يغطي رأسك التاج المقدس"، وكونه "راعٍ صالح" يعني أنه خليفة من خلفاء الله في أرضه، فوصف "الراعي" ما بارح واحداً منهم؛ لأن واحدة من وظائف الملوك الإلهيين هي هداية الخلق ورعايتهم وإدارة شؤونهم، قال الإمام علي (عليه السلام): [أنا الراعي؛ راعي الأنام، أفترى الراعي لا يعرف غنمه، ...]، وقال عيسى (عليه السلام): [أنا الراعي الصالح أعرف خرافي وخرافي تعرفني] [٢].

بحسب النص أيضاً: "دموزي" مختار من قبل الله سبحانه وفق مبدأ حاكمية الله، وليس هذا فقط بل هو ملك وخليفة إلهي ثائر "تحمل الصولجان والسيف"، ومتقدّم بين الخلق في سباق الاختبار والامتحان الإلهي "أنت العدّاء".

---

١. انظر: كريمر - ولكشاين: أنانا ملكة السماء والأرض: ١٠٢ - ١٠٣.

٢. انظر: المجلسي، بحار الأنوار: ٦٥/ ١٧٦؛ الكتاب المقدس - مجمع الكنائس الشرقية: ٣٢٢.

أيضاً: (دموزي - تموز) ورد وصفه في النصوص بأنه "إله"، وقد تقدم أنّ ألوهية ما سوى الله سبحانه هي ألوهية في الخلق، يتصف بها بعض الصالحين ممّن كان على درجة عالية من الكمال والرقي.

الملوك الإلهيين (خلفاء الله) بعلمهم وتعاليمهم التي يبثوها بين الناس يقومون في الحقيقة بإحياء القلوب الميتة، فأهل الدنيا موتى القلوب: [أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ] [١]، لذا قرّر جلجامش الرحيل إلى جده نوح (عليه السلام) ليتعلم منه سرّ الحياة، حياة الروح لا حياة البدن - كما سيتضح لاحقاً - التي يُفترض أنه يملكها، كما يفترض أنّ من كانوا يعاصرون رسول الله محمداً (صلى الله عليه وآله) أحياء بأبدانهم لكن الله سبحانه يخاطبهم: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ] [٢]. ومن ثمَّ لا عجب أن يُقرَن ذكر (دموزي - تموز) في بعض النصوص بالخضرة والعشب والحياة والنماء؛ لأنه الراعي الصالح الذي يبعث الحياة من جديد في القلوب والأرواح الميتة الجدبة التي يمتلك أصحابها - من البشر - حياة البدن فقط، وهي حياة لا يمتاز بها الإنسان عن سائر مخلوقات الله الأخرى بشيء أبداً.

هذا - باختصار - مشروع الراعي الصالح الإلهي، وأكيد أنه لو قدّر له النجاح واستجاب له الناس وتمّ لا يُبقي للدنيا (عشتار - أنانا) شيئاً يذكر، سيجعلها مفلسة تماماً، فرصيدها وأهلها قائم بموتى القلوب (أهل الظلم والجور والفساد والشهوات وما شابه)، ومثل هؤلاء لو خسرتهم فمن سيبقى لها، لذا فهي تحملهم بقوة للقضاء على صاحب هكذا مشروع تضحوي كبير يهدف إلى إنقاذ الناس من الموت المؤكد في الظلام.

صار بوسعنا أن نعرف الآن لماذا كانت طقوس العزاء والنواح في سومر شعبية وليست ضمن طقوس الديانة الرسمية لكهنة المعبد والحكام؛ لأنهم أساساً من أهل الدنيا وقد تقدم أنّ أحد نواميسها "الكهانة اللاصقة بالجسم" فهم علماء غير عاملين، لا يفقهون غير البدن وشهواته وملذاته الدنيوية الفانية، في حين أنّ مشروع

١. سورة النحل، آية ٢١.
٢. سورة الأنفال، آية ٢٤.

الراعي الصالح يهدف إلى إحياء القلب والروح بمعاني الخير والطهر والصلاح، وهذا لا يلتقي مع نهج الكهنة وفكرهم الدنيوي المادي في شيء أبداً.

وإذا عرفنا أنّ (دموزي - تموز) ملك إلهي فهو بالتأكيد خاضع للخطة الإلهية، وكان معلوماً مسبقاً ومقدّراً فيها أن يجري عليه ما جرى، وقد أعلم الله أنبياءه ورسله الأولين بذلك وأوحى لهم تلك المأساة العظيمة، فحزنوا وتألموا وبكوا على (دموزي - تموز)، ونشر أنبياء الله في سومر كنوح وإبراهيم (عليهما السلام) ومن قبلهم أبيهم آدم وإدريس (عليهما السلام) ومن تلاهم من خلفاء الله قصّته بين أقوامهم، فصارت ثقافة وأنشودة تتناقلها الأجيال شفاهة جيلاً بعد جيل، صار ذكر دموزي (الراعي الصالح) وما يجري عليه من مأساة - تحمّلها لأجل إنقاذ الناس - ترنيمة يترنم بها السومريون الأوائل في عصور ما قبل الكتابة والتدوين واستمر ذكره مكتوباً ومدوناً بعد اختراع الكتابة والتدوين ونقلته لنا الألواح والرقم الطينية، ولا زال ذكره وتخليد مأساته مستمراً في بلاد ما بين النهرين.

رابعاً: من يكون دموزي من بين خلفاء الله ؟

ابتداء، ينبغي أن نعرف أنّ خلفاء الله - وخصوصاً الذين يعتبرون علامات مهمة في مسيرة الدين الإلهي وهداية الخلق - مذكورون في النصوص الدينية الإلهية. وبقدر تعلق الأمر بالملك الإلهي (دموزي - تموز) وما جرى عليه من مأساة فمن يريد تحديده بشخص معين من خلفاء الله، فإضافة لما ذكر، لابد - كذلك - أن تكون حصّته من المأساة كتلك المذكورة في نصوص سومر.

ومن جانب آخر: نجد أنّ بعض الباحثين أثناء دراستهم للألواح الطينية التفتوا إلى مدى التشابه الكبير بين ما هو مدوّن في بعض الألواح وبين ما ورد في نصوص الكتب المقدسة اللاحقة في الأديان السماوية الثلاثة في مواضيع عديدة: كما سبق وأن أشرت لذلك. ومن ثمَّ، فليس أمراً مفاجئاً أن تكون النصوص السومرية أحياناً تتحدث عن أمر مستقبلي لم يحصل بعدُ في زمن تدوين وكتابة الحدث. وعلى هذا

الأساس ذكر د. فاضل عبدالواحد [١] محاولة بعض الباحثين (ويبدو أنه يرتضيها لأنه لم يعلّق عليها) تجسيد مأساة "دموزي" بما جرى على السيد المسيح (عليه السلام) المتأخر - كما هو معلوم - عن زمن تدوين النص بفترة طويلة جداً،

وصحيح أنّ غرض الكثير منهم - أعني الباحثين الآثاريين؛ وخصوصاً الملحدين منهم - من ذكر أوجه التشابه تلك بيان الأصول السومرية لكثير من معتقدات اليهودية والمسيحية وحتى الإسلام، ولما كان دين سومر بنظرهم (الخاطئ) مجرد تأليف أسطوري بشري فالنتيجة الحتمية المترتبة هي أن يكون منشأ الدين بشري أرضي، لكن من الصحيح أيضاً إمكان استفادة العكس من مبتغاهم تماماً بمعنى أننا اذا وجدنا حقيقة دينية تم ذكرها في نصوص سومر ثم رأينا تحققها في المستقبل فهذا دليل أكيد على أنّ منشأها غيبي إلهي، فمن يعتقد بوجود أيوب وعيسى (عليهما السلام) - مثلاً - في زمن متأخر جداً عن السومريين لمّا يجد ذكر هذه الشخصيات في نصوصهم ماذا بوسعة أن يقول غير أنّ الدين الإلهي كان موجوداً في سومر، وإلا فمن أين علم السومريون بخلفاء الله الذين يأتون بعد آلاف السنين ويجري عليهم ما هو مذكور في نصوصهم تماماً ؟!

يقول د. كريمر: (من بلاد الرافدين انتقل موضوع موت دموزي وقيامته إلى فلسطين، وليس عجيباً بعد هذا أن نجد نسوة أورشليم يعولن على تموز في إحدى بوابات معبد أورشليم. ولا يستبعد أبداً أن تترك أسطورة موت دموزي وقيامته بصمتها على قصة المسيح، على الرغم من الفجوة الروحية العميقة بينهما. ولقد كانت عدة أفكار رئيسية في قصة المسيح مما يمكن إرجاعه إلى أصول سومرية، .....).

وبعد ذكره لأوجه الشبه ومنها لقب "الراعي" و"المسيح الممسوح رأسه بالزيت"، قال: (لعلنا نستطيع أن نضيف الآن العذاب الذي لقيه دموزي على أيدي العفاريت العتاة، مما يذكرنا إلى حدٍّ ما بآلام المسيح: شد وثاقه ودقت أطرافه بالمسامير؛ أجبر على خلع ثيابه والركض عارياً؛ جلد وضرب. وقد صرنا نعلم فوق كل هذا أن دموزي،

---

١. د. فاضل عبدالواحد علي، من سومر إلى التوراة: ٢٧٨ - ٢٧٩.

وهو في هذا لا يختلف عن المسيح، لعب دور البديل الذي تعذب نيابة عن البشرية..... لكنا نسلم بأنّ نقاط الافتراق بين الاثنين أكبر وأظهر من نقاط الالتقاء) [١].

وفي مقام التعليق على كلامه أقول:

أولاً: غير صحيح القول بوجود فجوة روحية عميقة بين دموزي الإلهي (الراعي الصالح) وبين عيسى (عليه السلام)، فالاثنان معاً خلفاء لله ويجمعهما الطهر والصلاح وغيرها من صفات الرقي والكمال. نعم، الفجوة كبيرة وعميقة بين عيسى وبين دموزي المزيف الدنيوي الذي أشرنا له سابقاً، تماماً كالفجوة الموجودة بينه (أي المزيف) وبين دموزي الإلهي.

وثانياً: وصف "الراعي" يطلق على جميع خلفاء الله كما عرفنا؛ لأنهم يسوسون الخلق ويديرون شؤونهم، كما أنّ وصف "المسيح" بمعنى الممسوح رأسه بالزيت (إشارة إلى العلم الثقيل الذي يتحلّى به صاحب الرأس الممسوح) هو الآخر وصف لجميع خلفاء الله، وليس الوصفان مختصين بعيسى ودموزي فقط، ومن ثم لا يمكن اعتبار الوصفين دليلاً على وحدة الشخصيتين كما ذكر د. كريمر.

وثالثاً - وهو الأهم -: فصحيح أنّ ما جرى على المصلوب مأساة كبيرة، لكن ما جرى على دموزي - بحسب النصوص - مأساة أشد وأكبر، على أننا نعتقد أنّ المصلوب شخص آخر من خلفاء الله وليس عيسى الذي دعا الله أن ينحّي عنه كأس الصلب، ويمكن لمن يريد التحقق من المسألة بالتفصيل الرجوع إلى كتاب "الحواري الثالث عشر" للسيد أحمد الحسن.

أضف إلى ذلك: إنّ نصوص سومر ذكرت شخصية معذّبة أخرى في مأساة "دموزي"، كان لها دور كبير وهي أخته العالمة "جشتي - نانا"، كان لدموزي أيضاً عائلة وأطفال هاموا على وجوههم في البراري بعد مقتله، كان له أنصار قتلوا قبله، إلى غير ذلك من تفاصيل أشار لها النص كما سنلاحظ، وهي تفاصيل مهمة تُبعد انطباق

١. صموئيل كريمر، طقوس الجنس المقدس عند السومريين، ترجمة نهاد خياطة.

شخصية "دموزي" على عيسى الذي لم تُعرف له أخت أو عيال جرى عليهم ما هو مذكور في النص السومري.

و د. كريمر نفسه يعرف ذلك جيداً، لذا ختم كلامه بقوله: "كما نسلّم بأنّ نقاط الافتراق بين الاثنين أكبر وأظهر من نقاط الالتقاء".

إذن، (دموزي - تموز) ليس عيسى (عليه السلام)، فمن يكون إذن ؟

لا مجال للبتّ في المسألة إلا بالعودة إلى نصوص المأساة وقراءتها لنرى مَنْ مِن خلفاء الله قتل في بلاد سومر وجرت عليه فصول الألم والفاجعة التي يصوّرها النص السومري.

سأنقل الآن بعض النصوص من مقتل (دموزي - تموز) ولا أطلب من القارئ أكثر من أن يقارنها بفصول مأساة كربلاء - الواقعة ضمن حدود سومر - وما جرى فيها على الحسين بن علي حفيد رسول الله محمد (صلى الله عليه وآله) وأخته زينب بنت علي (عليها السلام) التي شاركته مصيبته وتحملت أقسى فصول الألم بعد شهادته.

[..... قلب دوموزي يسبح بالحزن والدموع ،
مضى إلى السهول الممتدة الواسعة ،
علّق الناي في عنقه وصاح يندب حظه ،
أيتها السهول الواسعة الممتدة بعيداً رددي بكائي ، .....] [1].

بعد أن ترك محله ومضى إلى السهول البعيدة، تذكّر أمه الحزينة لأجله، والتي ما برحت تذرف الدموع عليه، ومثلها أخته الحزينة:

[.... لتطلق أمي صرخة عويل ،
لتطلق أمي (سرتور) صرخة عويل ،
لتطلق أمي التي لا تملك خمسة أرغفة ، صرخة عويل ،
لتطلق أمي التي ليس عندها عشرة أرغفة ، صرخة عويل ،

١. كريمر - ولكشاين: أنانا ملكة السماء والأرض: ١٣٢.

عندما تفقدني لن تجد من يهتم بها ،
وأنت يا عيني التائهة في السهول ، ادمُعي مثل عينِ أمي ،
وأنت يا عيني التائهة في السهول ، ادمُعي مثل عينِ أختي ، ....] [١].

ورد في الروايات أنّ فاطمة (عليها السلام) كانت تبكي الحسين (عليه السلام) حتى تشهق بعبرتها [٢].

في رحلته إلى السهل، استلقى دموزي ورأى رؤيا أزعجته، فطلب إحضار أخته ليقصها عليها، ولأنها العالمة فهي تعرف تأويل الرؤى:

[دوموزي استفاق وقال:
أحضروها لي ، أحضروها ، أجلبوا أختي ،
أحضروا (جشتي نانا) أختي الصغيرة ،
أحضروا الكاتبة العالمة بسر الأرواح ،
أختي التي تعرف معنى الكلمات ،
المرأة الحكيمة التي تعرف معنى الأحلام ،
يجب أن أتحدث لها ،
يجب أن أخبرها بالحلم الذي رأيته] [٣].

وصف علي بن الحسين (عليه السلام) عمّته زينب (عليها السلام) - التي تصغر الحسين سنّاً - : "بعالمة غير معلمة وفهمة غير مفهمة" [٤].

قص دموزي رؤياه على أخته العالمة:

[دوموزي تحدث إلى أخته (جشتي نانا) قال:
عن الحلم ، أختي ، استمعي إلى الحلم الذي رأيته ،
الأسل يطلع في كل ما حولي ،
الأسل يندفع من باطن الأرض كثيفاً ،

---

١. المصدر نفسه.
٢. انظر: المجلسي، بحار الأنوار: ٤٥/ ٢٠٨.
٣. كريمر - ولكشاين: أنانا ملكة السماء والأرض: ١٣٣.
٤. انظر: المجلسي، بحار الأنوار: ٤٥/ ١٦٤.

واحدة من ذاك النبات وقفت وحيدة وحنت رأسها أمامي ،
كل الأسل وقف في أزواج إلا واحدة أزيلت من مكانها ،
في البستان انتصبت في محيط الأرض حولي أشجار طويلة مرعبة ،
فوق أرض منامي لا ماء ينسكب ،
محفظة متاعي خالية وقد أخذ منها ما بها ،
وكوبي المقدس قد سقط من الوتد المعلق به ،
عصا الراعي اختفت ،
النسر يحمل حملاً بين مخالبه ،
والصقر اختطف العصفور من سياج القصب ،
أختي: جدائي الصغار تجرجر في التراب ويغطيها الغبار ،
أغنامُ حظيرتي تتحرك فوق الأرض بقوائم ملتوية ،
مخضة اللبن محطمة خاوية فارغة ،
كوبي قد تهشم ،
دوموزي لم يعد بين الأحياء ،
حظيرة أغنامه صارت في مهب الريح] [١].

لما سمعت أخته منه رؤياه تألمت، وراحت تُأوّل له رموز رؤياه: فالأسل الذي رآه هو عصبة من السفاحين الذين سينقضون عليه لقتله. أما الواحدة التي كانت واقفة بانفراد وحانية رأسها أمامه فهي أمه. ولما كانت أخته لم تفارقه في حياته أبداً فهما في الرؤيا بمثابة زوج من الأسل لا يفترقان، ولكن في الرؤيا واحدة من الأسل أزيلت من مكانها فكانت إشارة إلى أنّ أحدهما سيتوارى ويزول.

استمرت أخته في تأويل رؤياه: فالأشجار الطويلة المرعبة هم الأشرار الذين سوف يرعبونه. وأما فوق أرض منامه وشهادته لا ماء ينسكب فمعناه أنّ بيته ومن كان يرعاه سيغدو خراباً بعد رحيله، نعم سيختفي دموزي ويرحل فمحفظته في الرؤيا باتت خالية وكوبه المقدس سقط وتهشم وعصاه وما يتقوّى به اختفت.

[قالت جشتي نانا:
أواه يا أخي ، لا تحكِ حلمك لي ،

١. كريمر - ولكشاين: أنانا ملكة السماء والأرض: ١٣٣ - ١٣٤.

ليس مريحاً ،
الأسل يطلع في كل ما حولك ،
الأسل يندفع من باطن الأرض كثيفاً ،
عصبة من السفاحين ستنقض عليك ،
هو حلمك ،
واحدة من ذاك النبات وقفت وحيدة وحنت رأسها أمامك ،
هي أمك ،
ستحني رأسها من أجلك ،
كل الأسل وقف في أزواج إلا واحدة أزيلت من مكانها ،
أنا وأنت ،
أحدنا سوف يتوارى ويزول ،
في البستان انتصبت في محيط الأرض حولك أشجار طويلة مرعبة ،
الأشرار سوف يرعبونك ،
فوق أرض منامك لا ماء ينسكب ،
حظيرة الغنم سوف تغدو خراباً ،
الأشرار سوف يُضيِّقون الخناق عليك] [١].

ضيّق الأعداء الخناق على الحسين (عليه السلام). فقد روي: (لما عبّأ عمر بن سعد أصحابه لمحاربة الحسين بن علي عليهما السلام ورتبهم مراتبهم، وأقام الرايات في مواضعها، وعبأ أصحاب الميمنة والميسرة، فقال لأصحاب القلب: أثبتوا، وأحاطوا بالحسين من كل جانب حتى جعلوه في مثل الحلقة ...) [٢].

تستمر أخته "جشتي نانا" في ذكر ما سيفعله الشياطين بدموزي:

[محفظة متاعك خالية وقد أخذ منها ما بها ،
وكوبك المقدس قد سقط من الوتد المعلق به ،
سوف تقع من ركبة أمك التي حملتك ،
متاع الراعي ،
مخضة الراعي ، كل شيء يختفي ،

١. كريمر - ولكشاين: أنانا ملكة السماء والأرض: ١٣٤ - ١٣٥.
٢. المجلسي، بحار الأنوار: ٤٥/ ٨.

الأشرار سوف يفعلون كل شيء يضعفك ،
تجمعوا ،
البومة ،
النسر ،
الصقر ،
العفريت الكبير ،
كلهم يريدون أن يطردوك ،
سيقضون عليك في حظيرة الغنم ،
جداؤك الصغار تجرجر في التراب يغطيها الغبار ،
الغضب سوف يدوم في السماء مثل الإعصار] [١].

من قتلوا (دموزي - تموز) قوم مجرمون قساة لا يعرفون الرحمة، هم في الحقيقة مسوخ شيطانية وحقائقهم حيوانية وإن كانوا بصورة بشر.

أما متى يسقط "دموزي" قتيلاً ؟ يسقط حينما يفقد أنصاره "غنمه" المدافعين عنه وهم عصارة وخلاصة الأمة الممتحنة به، التي دعاها إلى نصرته ولكن القلة هي من لبّت نداءه وانتفعت بعلمه وهُداه فقط "مخضة اللبن". نعم، عندما يسقط هؤلاء على الأرض مضرّجين بدمائهم "قوائم ملتوية" يُقتل "دموزي" ويكون كل شيء ذابلاً،

[أنت ستسقط إلى الأرض ،
عندما أغنام حظيرتك تتحرك فوق الأرض بقوائم ملتوية ،
عندما مخضة اللبن محطمة خاوية فارغة ،
الشياطين ستجعل كل شيء ذابلاً] [٢].

هل هذا كل ما فعلته أنانا - عشتار (الدنيا) وأتباعها الشياطين المجرمون بدموزي ؟ كلا، هذه المرة يخطف الشياطين القساة "الجالا" [٣] منه حتى ابنه الصغير (رضيعه) فيقتلوه ويحتسبه قرباناً للمشروع الإلهي الذي نذر نفسه له،

---

١. كريمر - ولكشاين: أنانا ملكة السماء والأرض: ١٣٤ - ١٣٥.
٢. المصدر نفسه: ١٣٥ - ١٣٦.
٣. الجالا: "نوع من الشياطين الأكثر شراسة". انظر: ديوان الأساطير - الكتاب الرابع: ٩٨.

روي أنّ الحسين (دعا ابنه عبد الله فجعل يقبّله وهو يقول: ويل لهؤلاء القوم إذا كان جدك محمد المصطفى خصمهم، والصبي في حجره، إذ رماه حرملة بن كاهل الأسدي بسهم فذبحه في حجر الحسين) [١].

[حينما يأخذ النسر الخروف الصغير ،
الجالا سيخدش خدودك ،
عندما يمسك الصقرُ العصفورَ من سياج القصب ،
الجالا سوف يتسلق السور ليأخذك بعيداً.
دوموزي ،
شعري سيدور في السماء لأجلك ،
الخراف ستحفر الأرض بحوافرها ،
أوه دوموزي أنا سوف أشقق خدودي بأسف عليك] [٢].

حقَّ - إذن - لأخته أن تحزن عليه وتخمش خدودها لأجله ويطير فكرها عليه "شعري سيدور في السماء لأجلك" من شدة الدهشة والذهول الذي أصابها لما يجري عليه وانتهاك حرمته من قبل الشياطين المجرمين:

[عندما وجدت جشتي نانا دوموزي في حظيرة الأغنام بكت ،
رفعت فمها بجانب السماء ،
أحضرت فمها بجانب الأرض ،
مثل الثوب غطى حزنها الأفق ،
مزقت عينيها ، مزقت فمها ، مزقت أفخاذها ،
صعد الـ (جلا) سياج القصب ،
ضرب الـ (جلا) الأول دوموزي على الخد ونشب أظافره ،
ضرب الـ (جلا) الثاني دوموزي على الخد الآخر ،
الـ (جلا) الثالث حطم عجيزة المزبدة ،
الـ (جلا) الرابع أنزل الكوب من وتده وحطمه ،
الـ (جلا) الخامس حطم المزبدة ،
الـ (جلا) السادس حطم الكوب ،

---

١. المجلسي، بحار الأنوار: ٤٥/ ٤٦.
٢. كريمر - ولكشاين: أنانا ملكة السماء والأرض: ١٣٦.

ال (الجلا) السابع بكى] [1].

لما أثخن الحسين (عليه السلام) بالجراح وضعف عن القتال: (نادى شمر: ما وقوفكم؟ وما تنتظرون بالرجل؟ قد أثخنته الجراح والسهام احملوا عليه ثكلتكم أمهاتكم، فحملوا عليه من كل جانب، فرماه الحصين بن تميم في فيه وأبو أيوب الغنوي بسهم في حلقه، وضربه زرعة بن شريك التميمي على كتفه وكان قد طعنه سنان بن أنس النخعي في صدره، وطعنه صالح بن وهب المزني على خاصرته فوقع عليه السلام إلى الأرض على خده الأيمن، ....) [2].

والملفت أنّ النص يذكر بكاء أحد هؤلاء الشياطين، فمَنْ مِن قتلة الحسين (عليه السلام) بكى وهو يريد قتله يوم عاشوراء ؟

لما أحاطوا بالحسين خرجت أخته زينب وقالت: (يا عمر بن سعد أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر إليه، قال فكأني أنظر إلى دموع عمر وهي تسيل على خديه ولحيته قال وصرف بوجهه عنها...... وسُلب الحسين ما كان عليه فأخذ سراويله بحر بن كعب وأخذ قيس بن الأشعث قطيفته وكانت من خز وأخذ نعليه رجل من بنى أود يقال له الأسود وأخذ سيفه رجل من بنى نهشل بن دارم ... ومال الناس على الورس والحلل والإبل وانتهبوها قال ومال الناس على نساء الحسين وثقله ومتاعه ...) [3].

[لِمَ تهيم هكذا ، أيها الراعي ؟
لقد أمسكوا بنعجاتك واستولوا على حملانك
لِمَ تهيم هكذا ؟
لقد أمسكوا بعنزاتك واستولوا على جديانك
لِمَ تهيم هكذا ؟ ...
مخضتك الجميلة ، تم تفتيتها: لماذا غطيت
رأسك بقطعة قماش ؟
جديانك الأكثر سمنة ، بقيت في الحظيرة في حالة خَدَر

١. المصدر نفسه: ١٤٢ - ١٤٣.
٢. المجلسي، بحار الأنوار: ٤٥/ ٥٥.
٣. الطبري، تاريخ الأمم والملوك: ٤/ ٣٤٥ - ٣٤٦.

وجديانك الأصغر تثغو يائسة بجوار المعالف !
وحملانك اليتامى تنوح بجوار قاعدة جدار الحظيرة !
واختك ذات اللطف ، وهي متأثرة بنواحها] [١].

انهض يا حسين، فقد صودر مخيمك، انتهب رحلك، أطفالك وعيالك، بناتك ونساؤك سبايا، أيها القتيل المسلوب، المحزوز الرأس من القفا:

[انهض من نومك الزائف ،
نعاجك صودرت ،
حملانك صودرت ،
عنزاتك صودرت ،
نمسك أطفالكم (جديانك صودرت)
اخلع تاجك المقدس من رأسك ،
انزع ملابسك الملكية من جسدك ،
دع صولجانك الملكي يسقط على الأرض ،
اخلع نعليك المقدسة من أقدامك ،
عرياناً ، تمضي معنا
أمسك الـ (جلا) دوموزي ،
أحاطوه ،
أوثقوا يديه ،
ربطوا رقبته ،
سكتت المزبدة ،
لا حليب ينزل منها ،
الكوب محطم ،
لا دوموزي بعد الآن ،
أصبحت حظيرة الغنم في مهب الريح] [٢].

وهذا نداء زينب بعد مقتل أخيها الحسين (عليه الحسين):

---

١. أدونيس، ديوان الأساطير - الكتاب الرابع،: ٩٦.
٢. كريمر - ولكشاين: أنانا ملكة السماء والأرض: ١٤٤.

[يا محمداه بناتك سبايا، وذريتك مقتلة، تسفي عليهم ريح الصبا، وهذا حسين مجزوز الرأس من القفا، مسلوب العمامة والرداء، بأبي من عسكره في يوم الاثنين نهبا، بأبي من فسطاطه مقطع العرى، بأبي من لا هو غائب فيرتجى، ولا جريح فيداوى، بأبي من نفسي له الفداء، بأبي المهموم حتى قضى، بأبي العطشان حتى مضى، بأبي من شيبته تقطر بالدماء ..] [١].

وهذا مقطع يزور به الإمام المهدي (عليه السلام) جده الحسين في يوم عاشوراء:

[.. وقد عجبت من صبرك ملائكة السماوات، وأحدقوا بك من كل الجهات، وأثخنوك بالجراح وحالوا بينك وبين ماء الفرات، ولم يبق لك ناصر، وأنت محتسب صابر، تذب عن نسوانك وأولادك. فهويت إلى الأرض طريحاً، ظمآن جريحاً، تطؤك الخيول بحوافرها، وتعلوك الطغاة ببواترها، قد رشح للموت جبينك، واختلفت بالانبساط والانقباض شمالك ويمينك، تدير طرفاً منكسراً إلى رحلك، وقد شغلت بنفسك عن ولدك وأهلك، وأسرع فرسك شارداً، وإلى خيامك قاصداً، محمحماً باكياً. فلما رأين النساء جوادك مخزياً، وأبصرن سرجك ملوياً، برزن من الخدور للشعور ناشرات، وللخدود لاطمات، وللوجوه سافرات، وبالعويل داعيات، وبعد العز مذللات، وإلى مصرعك مبادرات، وشمر جالس على صدرك، مولغ سيفه في نحرك، قابض شيبتك بيده، ذابح لك بمهنده، وقد سكنت حواسك، وخمدت أنفاسك، وورد على القناة رأسك، وسبي أهلك كالعبيد، وصفدوا في الحديد فوق أقتاب المطيات، تلفح وجوههم حرور الهاجرات، يساقون في الفلوات، أيديهم مغلولة إلى الأعناق، يطاف بهم في الأسواق ..] [٢].

وبخصوص بكاء ونواح أنبياء الله السابقين كآدم ونوح وإبراهيم (عليهم السلام)، ففي تراثنا الديني الكثير من الشواهد على ذلك، سأكتفي بمثالين منها:

---

١. المجلسي، بحار الأنوار: ٤٥/ ٥٩.

٢. المصدر نفسه: ٩٨/ ٢٤١.

١- ورد في تفسير قوله تعالى "فتلقى آدم من ربه كلمات"، أن جبرئيل علم آدم (عليه السلام) اسم النبي وعلي وفاطمة والحسن والحسين، (... فلما ذكر الحسين سالت دموعه وانخشع قلبه، وقال: يا أخي جبرئيل في ذكر الخامس ينكسر قلبي وتسيل عبرتي؟ قال جبرئيل: ولدك هذا يصاب بمصيبة تصغر عندها المصائب، فقال: يا أخي وما هي؟ قال: يقتل عطشاناً غريباً وحيداً فريداً ليس له ناصر ولا معين، ولو تراه يا آدم وهو يقول: وا عطشاه وا قلة ناصراه، حتى يحول العطش بينه وبين السماء كالدخان، فلم يجبه أحد إلا بالسيوف، وشرب الحتوف، فيذبح ذبح الشاة من قفاه، وينهب رحله أعداؤه وتشهر رؤوسهم هو وأنصاره في البلدان، ومعهم النسوان، كذلك سبق في علم الواحد المنان، فبكى آدم وجبرئيل بكاء الثكلى) [١].

٢- (وروي أنّ نوحاً لما ركب في السفينة طافت به جميع الدنيا، فلما مرت بكربلاء أخذته الأرض وخاف نوح الغرق، فدعا ربه وقال: إلهي، طفت جميع الدنيا وما أصابني فزع مثل ما أصابني في هذه الأرض، فنزل جبرئيل وقال: يا نوح، في هذا الموضع يقتل الحسين سبط محمد خاتم الأنبياء وابن خاتم الأوصياء، ...

وروي أنّ إبراهيم مرَّ في أرض كربلاء وهو راكب فرساً، فعثرت به وسقط إبراهيم وشج رأسه وسال دمه، فأخذ في الاستغفار وقال: إلهي، أي شيء حدث مني ؟ فنزل إليه جبرئيل وقال: يا إبراهيم، ما حدث منك ذنب ولكن هنا يقتل سبط خاتم الأنبياء وابن خاتم الأوصياء فسال دمك موافقة لدمه ...) [٢].

١. المصدر نفسه: ٤٤/ ٢٤٥.
٢. المصدر نفسه: ٤٤/ ٢٤٣.

٢/٣- جلجامش ورحلة الخلود:

جلجامش السومري الذي ذاع صيته في بلاد سومر منذ آلاف السنين، وورد ذكره في النصوص السومرية، شخصية أسرت قلوب وفكر الباحثين منذ أن تم اكتشاف ألواح ملحمته في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي.

(عجباً من كان جلجامش هذا الذي أصبح مثالاً يحتذى به لدى أبطال الأمم الأخرى ؟!) [١].

(فجلجامش هو الرجل الذي لم يخبُ ذكره على مر العصور، قديمها وحديثها، وسيظل ذكره قائماً لعصور قادمة قد لا نعلم مداها اليوم) [٢].

وليس شخصية "جلجامش" من خطفت ألباب الباحثين قديماً وحديثاً، بل ملحمته هي الأخرى كان لها وقع كبير في نفوس كبار الباحثين في حضارة بلاد ما بين النهرين، فصحيح هي قصة شرقية ولكن ليست كسائر القصص التي تتناقلها الشعوب عادة (هي من معدن آخر، إنها قصة أسطورية فلسفية وكلما أوغلنا في تحليلها كلما حاسبنا أنفسنا وقلنا من هذه الناحية يجب أن ننطلق لا بل من تلك يجب أن نبحث) [٣].

سنحاول في هذا البحث المرور على أهم الأحداث التي تضمّنتها ملحمة جلجامش الشهيرة، وسنستخلص منها خارطة طريق الخلاص الإنساني، من خلال المقارنة بين الفهم السائد لها بين شرّاحها، فهم بالرغم من اختلافهم في بعض التفاصيل إلا أنهم يتفقون في كثير من الأمور العامة المهمة في الملحمة، وهو فهم يشبه إلى حد كبير ما يطرحه علماء الأديان من تفسير للنصوص الدينية؛ إما من حيث كفاية الأخذ بالمدلول اللغوي للمفردات، أو من حيث محاولة البعض بعدم إغفال الرمزية أثناء الشرح لكنه لم يسعفه علمه لفك الرموز بشكل صحيح. سنقارن بين هؤلاء وبين

---

١. طه باقر، ملحمة جلجامش: ١٦ - ١٧.

٢. د. نائل حنون، ملحمة جلجامش: ١٨.

٣. شارل فيروللو، أساطير بابل وكنعان: ٤٧.

الفهم الذي قدّمه السيد أحمد الحسن للملحمة في كتابه "وهم الإلحاد"، وهو فهم لم يغفل رمزية النص وفك شفرته بشكل حفظ لنصوص الملحمة انسجامها ووحدة مضامينها كما سيتضح.

٣/٢/١- ملحمة جلجامش:

لم يخفِ الباحثون شدة إعجابهم بملحمة جلجامش وما تضمّنته من مواقف ومعانٍ إنسانية راقية ووقّادة، لم تكفِ آلاف السنين المتعاقبة - ولن تكفي - على تقليل جذوتها وأثرها في نفوس ملايين البشر جيلاً بعد جيل.

ونحن في بحثنا فيها يمكننا أن نثير - ابتداءً - سؤالين:

١- هل الملحمة نص أدبي محض أم ديني ؟
٢- هل نقرأ في الملحمة تاريخ الإنسانية الماضي أم القادم ؟

بخصوص السؤال الأول، فإنّ الباحثين يرون أنّ الملحمة عبارة عن نص أدبي، نال من الشهرة والمكانة ما نالته الآداب العالمية الشهيرة إن لم يكن قد فاقها جميعاً.

(ومع أنّ هذه الملحمة قد دوّنت قبل ٤٠٠٠ عام، وترجع حقبة حوادثها إلى أزمان أخرى أبعد، فإنها، مثل الآداب العالمية الشهيرة، ما تزال خالدة وذات جاذبية إنسانية عامة في جميع الأزمان والأمكنة، لأن القضايا التي عالجتها لا تزال تشغل بال الإنسان وتفكيره وتؤثر في حياته العاطفية والفكرية مما جعل مواقفها وحوادثها مثيرة تأسر القلوب) [(١)].

الملحمة - كما هو معروف عنها - مرت بمراحل تطورية كثيرة قبل أن تستقر على ما هي عليه، فهناك نصوص سومرية متفرقة عن جلجامش لم تجمع في نص واحد متماسك، لكنها رغم تفرقها دخلت في صياغة النص البابلي القديم (الذي استحق أن يوصف بالملحمة)، ثم تطور هذا الأخير وهكذا وصولاً إلى النص الآشوري للملحمة.

---

١. طه باقر، ملحمة جلجامش: ١٠ - ١١.

(وبمقارنة هذه القطع الأصلية المتنوعة مع النص النينوي بدت معلومات قيمة. ليس في سد الثغرات فحسب بل أظهرت تماماً بأن قصيدة "ملحمة" جلجامش لم تكن على شكل واحد في عهد الآشوريين. وهذا برهان على أنّ الأسطورة تطورت بصورة ملحوظة عبر الأجيال. وبتعبير آخر فإن الكَتَبة لم يكتفوا بنسخ النص القديم بشكل أمين وحرفي بل وأضافوا وبتروا وحوّروا. ....) [١].

(... ولكن تحليلاً مقارناً لهذه الملحمة البابلية ولأصولها السومرية سوف يبين لنا أنّ المؤلفين والجامعين البابليين قد استعملوا وحوّروا في الملاحم السومرية لأغراضهم الخاصة) [٢].

إنّ محاولات التحريف والتصرّف في نص الملحمة يُنبئ - في إحدى مدلولاته - إلى أنّ أنها - أي الملحمة - لا تقتصر على كونها نصاً أدبياً محضاً وإنما تعتبر نصاً دينياً يحكي قصة شخصية مقدسة، وإلا من يهتم عادة لتحريف نص أدبي محض [٣] ؟!!

وثانياً: إنّ أحداث الملحمة لم تفارق ذكر الإله أو الآلهة التي تحتل موقع الريادة في ديانة وعقيدة السومريين كما عرفنا، بل حتى "الرؤى" التي احتلت مساحة في سور وأسفار الكتب المقدسة لدى الأديان السماوية، كرؤيا دانيال ورؤيا يوسف، كانت لها حصتها في الملحمة أيضاً.

وثالثاً: إنّ المضامين التي تسعى الملحمة إلى إيصالها - كما سيتضح - هي مضامين دينية، بل تعتبر من صميم الدين الإلهي الذي بُعث به خلفاء الله، بل إنّ مقوّمات النص الديني - كالترميز الذي يعد سمة أساسية للنصوص الدينية - نراه ماثلاً بوضوح في نصوص الملحمة كما سنعرف.

---

١. شارل فيروللو، أساطير بابل وكنعان: ٣٧.

٢. صموئيل كريمر، من ألواح سومر: ٣٠٢.

٣. انظر: أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ٣٥١ فما بعد.

ورابعاً: اهتمام السومريين وشغفهم وتقديسهم لشخصية "جلجامش" وصل إلى حد حمل اسمه في تعويذاتهم الدينية [١]، وهو أمر يرشد - هو الآخر - إلى أنّ ملحمته ليست مجرد مقطوعة أدبية وحسب.

نعم، يمكن القول إنّ الملحمة نص ديني طاله التحريف - كأي نص ديني آخر، وقد تقدمت الإشارة لذلك - خصوصاً وأن القصة كانت متداولة قبل عصر الكتابة بزمن طويل، وإذا (كانت هناك محاولات تحريف مقصودة لنصوص مكتوبة فما بالك بالنصوص المنقولة شفاهة قبل عصر الكتابة، أكيد أنّ تعرّضها للتحريف أكبر، وإنها لما دوّنت في عصور الكتابة والتدوين الأُولى دوّنت بصورتها المحرَّفة، وبالتالي فقصة الطوفان وقصة دموزي وقصة جلجامش وغيرها من القصص ذات الأُصول السومرية - الأكادية يمكننا أن نجزم أنها لم تدوّن بالصورة التي تداولها القاص قبل عهد التدوين) [٢].

وبخصوص السؤال الثاني، فإنّ بعض الباحثين الذين كتبوا في الملحمة اعتبروا أنها تحكي حال الزمن الماضي، وسنطرح لاحقاً بعض محطات الملحمة ونتعرف على فهمهم لها.

(وتحتل هذه الملحمة، مع قصة الخليقة البابلية، مكانها المتميز بين أعظم ملاحم العالم القديم. فعلاوة على قيمتها الشعرية الخالدة، فإنّ نصها مليء بالمعاني العميقة والقيم السامية والتي تفرض وجوب عدم قراءة الملحمة كمجرد حكاية أو أسطورة، وإنما كوثيقة عن القيم الإنسانية القديمة) [٣].

هناك دراسات عديدة تناولت ملحمة جلجامش بالشرح والتحليل، وقد تأرجحت بين من نظر لها على أساس أنها (تنفرد في كونها اتخذت من الإنسان نفسه ومن صراعه مع الموت موضوعاً لها) [٤]، وبين من نظر لها بأفق أوسع ويرى أنها

---

١. انظر: طه باقر، ملحمة جلجامش: ١٧ - ١٨.

٢. أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ٣٥٢.

٣. د. حسين علوان حسين، الصراع في ملحمة جلجامش - قراءة في جدلية الملحمة.

٤. فاضل عبدالواحد علي، سومر أسطورة وملحمة: ١٧٦.

(عالجت قضايا إنسانية عامة، كمشكلة الحياة والموت، وما بعد الموت، والخلود، ومثلت تمثيلاً مؤثراً بارعاً ذلك الصراع الأزلي بين الموت والزوال المقدرين وبين إرادة الإنسان المغلوبة المقهورة في محاولتها التشبث بالوجود والبقاء) [١].

هذا، ونحن سبق وأن ذكرنا أنّ كثيراً من الباحثين انتبه لأوجه الشبه بين نصوص سومر ونصوص الأديان الإلهية اللاحقة، وألّف كتباً خاصة فيه، فعلى سبيل المثال: يقول د. كريمر بخصوص قصة أيوب (عليه السلام): (إنّ جميع الألواح وكسر الألواح المدوّنة فيها تلك المقالة السومرية تمتد في عهدها إلى أكثر من ألف عام قبل أن يدوّن سفر أيوب) [٢].

على هذا الأساس انتهينا - فيما سبق - إلى أنّ نصوص "دموزي" إنما تتحدث عن خليفة إلهي مستقبلي نسبة إلى وقت تداول قصته بين السومريين فضلاً عن وقت تدوينها، ونفس الأمر يمكن أن نقوله في شخصية "جلجامش" الملحمي.

(ملحمة جلجامش يمكن أن نقرأ فيها تاريخ الإنسانية الآتي وليس الماضي كما يتصور بعض شرّاحها، ويمكن أن نقرأ فيها قصة المنقذ للنوع الإنساني من حيوانيته التي كانت - وللأسف - حاضرة على الدوام وبقوة خصوصاً في المواجهات الكبرى) [٣].

بل يمكننا استشراف "المستقبل" في الملحمة وكونها تتحدث عن تاريخ الإنسانية الآتي حتى من بعض معاني اسم "جلجامش":

(هذا ولا يعلم معنى اسم "جلجامش" بالضبط. وقد ذكرت بعض النصوص الأكدية ترجمة له باللغة الأكدية معناها "المحارب الذي في المقدمة". كما أنّ هناك احتمالاً لاسمه السومري معناه "الرجل الذي سيكون نواة لشجرة جديدة" أي "الرجل الذي سيولد أسرة") [٤].

---

١. طه باقر، ملحمة جلجامش: ١١.

٢. صموئيل كريمر، من ألواح سومر: ٢٠٨.

٣. أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ٣٧٤.

٤. طه باقر، ملحمة جلجامش: ١٩.

لاحظ: "سيكون، سيولد ..." في إشارة واضحة إلى المستقبل.

٣/٢/٢- شخصية جلجامش:

يزعم بعض الباحثين أنّ جلجامش شخصية أسطورية غير حقيقية، ويعتقد البعض الآخر [١] أنه شخصية تاريخية حكمت مدينة أوروك.

يقول د. نائل حنون: (من المتفق عليه أنّ جلجامش عاش في جنوب بلاد الرافدين وكان ملكاً على مدينة أوروك "الوركاء" في حدود عام ٢٦٠٠ قبل الميلاد أو قبل ذلك بقليل، أي أنه كان أحد ملوك دويلات المدن التي قامت في بلاد الرافدين خلال عصر فجر السلالات) [٢].

وفق "ثبت ملوك سومر" يعتبر جلجامش خامس الملوك الذين حكموا مدينة أوروك بعد الطوفان، حيث تتألف سلالة أوروك الأولى من اثني عشر ملكاً أولهم "مسكيا - جاشر" يليه ابنه "انيمركار" ثم "لوجال بندا"، وبعده "دموزي" صياد السمك الذي تقدم ذكره، ثم يأتي اسم "جلجامش" ابن لُلّا (Lulla) الذي حكم ١٢٦ عاماً وخلفه ابنه "أور - ننكال" [٣].

لكن (تروي القصص "كما في ملحمة جلجامش" أنّ أمه كانت الإلهة "ننسون" زوجة الإله "لوكال بندا"، ولكن أبا البطل جلجامش لم يكن "لوكال بندا" وإنما ورد ذكره في أثبات الملوك السابقة الذكر بهيئة "للا" الذي يعني نوعاً من الشياطين وإنه كان كاهن كلاب) [٤].

هذا يعني وجود اختلاف على مستوى النسب بين جلجامش الملحمة وجلجامش التاريخ، ثم إنّ جلجامش التاريخ هذا لا يستحق أن يذيع صيته في مدن سومر الأخرى

---

١. منهم: د. نائل حنون في كتابه "ملحمة جلجامش"، وفراس السواح في كتابه "قراءة في ملحمة جلجامش".
٢. د. نائل حنون، ملحمة جلجامش: ١٥.
٣. انظر: فراس السواح، قراءة في ملحمة جلجامش: ٢٦.
٤. طه باقر، ملحمة جلجامش: ١٧.

فضلاً عن أن يكون شخصية أممية تأسر قلوب من سكن بلاد ما بين النهرين وما جاورها بل والعالم كله إلى يوم الناس هذا.

(وعلى أية حال، ليس "جلجامش" الذي كتب عنه التاريخ سطرين يسترعي انتباهنا، ولكن "جلجامش" الذي وصلتنا أُسطورته الشعرية) [١].

الحقيقة إنّ ما حصل مع شخصية جلجامش الملحمة هو نفسه الأمر الذي حصل مع دموزي (الابن الصالح) تماماً كما عرفنا سابقاً، فهناك رأينا كيف اشتبه الأمر على كبار الباحثين وأسقطوا شخصية الراعي الصالح على دموزي الوركاء "صياد السمك" وهنا أيضاً نراهم يُسقطون شخصية جلجامش الملحمة على جلجامش الوركاء ابن "لُلّا"، بالرغم من وجود الاختلاف الواضح بينهما سواء على مستوى النسب أو على مستوى الأعمال الكبرى التي قام بها أيضاً.

(لعل أعظم تشويه تتعرض له هذه الملاحم هو إسقاط الشخصيات الملحمية على مصاديق خاطئة نتيجة الاشتباه، كإسقاطها على ملوك وردت أسماؤهم في سجل الملوك، مثلاً عندما يتم إسقاط شخصية جلجامش الملحمية على الملك جلجامش رغم اختلاف أسماء الآباء والنسب فهذا تماماً كمن يقول اليوم وهو يقرأ قصة المهدي الملحمية التي ذكرها النبي محمد (صلى الله عليه وآله) في روايات كثيرة إنّ هناك ملكاً في دولة بني العباس قبل أكثر من ألف عام اسمه المهدي، وهو يعتقد أنّ المقصود بقصة المهدي الإسلامي الملحمية هو ذلك الملك العباسي) [٢].

والنتيجة إنه لا يوجد اتفاق بين الباحثين على تحديد شخصية "جلجامش"، والأمر ليس كما ادّعى د. نائل حنون في قوله المتقدم.

ثم إننا وبعد أن فتحنا نافذة لإمكانية أن تكون الملحمة نصاً دينياً يتضمن مضموناً مقدساً وليست نصّاً أدبياً صرفاً، يترتب على ذلك - بطبيعة الحال - أن تكون شخصية جلجامش ذات طابع ديني مقدس لدى السومريين، وهذا ما ستكشفه

---

١. شارل فيروللو، أساطير بابل وكنعان: ٤٠.

٢. أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ٣٧٧.

بصورة أجلى قراءتنا لأهم أحداث الملحمة، فإنها بكل تأكيد ستزودنا بتفاصيل مهمة تسهم في تحديد هوية بطلها.

٣/٢/٣- أحداث الملحمة بين رؤيتين:

سنستعرض الآن أهم الأحداث التي ورد ذكرها في ملحمة جلجامش ونجري مقارنة بين رؤيتين وقراءتين؛ لنرى أيّاً منهما أقرب للحقيقة، وأعني بالقرب للحقيقة هنا هو قدرة أي من الرؤيتين على تقديم صورة واضحة ومنسجمة لنصوص الملحمة بحيث لا يكون هناك سبيل للتناقض والتضارب فيما بينها، وبالتالي تحفظ للملحمة قيمتها؛ الملحمة التي تم ترجمتها إلى أغلب اللغات العالمية المعروفة، وقُدمت حولها المئات من الدراسات والبحوث في أرقى جامعات العالم المعاصر.

١- هوية جلجامش:

ابتداءً، مطلع الملحمة يعطينا تعريفاً مختصراً بهوية بطلها:

[اللوح الأول:
هو الذي رأى كل شيء فغني بذكره يا بلادي ،
وهو الذي خبر جميع الأشياء وأفاد من عبرها ،
وهو الحكيم العارف بكل شيء ،
لقد أبصر الأسرار وعرف الخفايا المكتومة ،
وجاء بأنباء الأيام مما قبل الطوفان ،
لقد أوغل في الأسفار البعيدة حتى حل به الضنى والتعب ،
فنقش في نصب الحجر كل ما عاناه وما خبره] [(١)].

وأيضاً يخاطبه أنكيدو في نص آخر قائلاً له:

[إنك الرجل الأوحد ، أنت الذي حملتك أمك ،

١. طه باقر، ملحمة جلجامش: ٣٥.

ولدتك أمك "ننسون" .....
ورفع أنليل رأسك عالياً على الناس ،
وقدر إليك الملوكية على البشر] [١].

"جلجامش" بحسب النصين ملك منصب من الله، حكيم عارف بكل شيء عالم بخفايا الأسرار، ومعلم للناس أيضاً. ومن ثمَّ فليس من الصحيح ما ذهب إليه بعض الباحثين من انطباق هويته على جلجامش الذي حكم أوروك قبل ٤٦٠٠ سنة تقريباً؛ لأن شيئاً مما ذكر في تعريف هوية البطل لا يتصل بهذا الأخير في شيء أبداً.

(واضح أنّ النص يصف شخصاً عالماً "رأى كل شيء ..... الذي خبر جميع الأشياء ..... الحكيم العارف ..... أبصر الأسرار وعرف الخفايا المكتومة"، ومُعَلِّماً مهمّاً جاء بعلوم مهمة وسينقشها بحيث إنها ستبقى بين الناس "فنقش في نصب الحجر كل ما عاناه وما خبره") [٢].

إنّ مما لا شك فيه أنّ الإنسانية منذ زمن آدم ونوح (عليهما السلام) ومن تلاهم من خلفاء الله في سومر وإلى يوم الناس هذا، لم تزل مصرّة على الاتصاف بصفات "أسلاف البشر" ذات الطابع الحيواني الجيني الغريزي بشكل عام، وهذه الصفات الأنانية بعيدة كل البعد عن المثل والقيم الإنسانية العليا كالإيثار والتضحية دون مقابل والخلود وما شابه، فكانت الحاجة ملحّة إلى قصة معلّم ومنقذ رباني تُسهم قصته وأعماله في رفد الإنسان - سابقاً ولاحقاً - بهذه المثل الراقية وتذكيره بها وبالتالي ترسم له طريق الإنقاذ والخلاص بنحو تشكّل له سداً عن الانحدار والتقهقر إلى ما كان عليه أسلافه؛ الانحدار الذي يبعده بكل تأكيد عن موقعه الذي أريد له أن يكون فيه، فكانت قصة المنقذ والمخلص خير معين له على نيل ذلك الهدف السامي، لهذا وجدنا قصته تعويذة يتلوها الجميع ويشغفون بها.

---

١. المصدر نفسه: ٥٠.

٢. أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ٣٨٠.

على أنّ اعتبار "جلجامش" كـ "منقذ" أمر التفت إليه بعض الباحثين استناداً لبعض النصوص، يقول كريمر تعقيباً على قصيدة "جلجامش وآجا": (وتنتهي القصيدة بتسبيحة حمد لجلجامش كمنقذ للوركاء) [١].

والآن، وفق هذا التصور صار بوسعنا أن نقرأ ملحمة جلجامش بفهم آخر ربما غير مطروح في الساحة العلمية قبل السيد أحمد الحسن، حيث يقول:

(... وسنحاول معاً قراءتها بصورة أُخرى ربما ليست معهودة، سنحاول قراءتها على أنها قصة قصها آدم لأبنائه، وقصها نوح لأبنائه، وقصها إبراهيم لأبنائه، وانتشرت بين السومريين وبين شعوب العالم القديم وخصوصاً في الشرق الأدنى، وأصبحت القصة المفضلة لسكان بلاد ما بين النهرين (mesopotamia) وتناقلتها الأجيال حتى وصلتنا عبر آلاف السنين، ولكنها ربما شُوِّهت وحُرِّفت - كما تبيَّن لنا سابقاً - عندما تداولها الناس. قصة جلجامش الذي سيأتي يوماً ليحقق العدالة وينقذ النوع الإنساني من حيوانيته، ...) [٢].

٢- هل صدر من جلجامش ظلم واعتداء ؟

"جلجامش" المنقذ والمخلّص، العالم والحكيم، فهم بعض المختصين بالحضارة السومرية - استناداً لظاهر بعض نصوص الملحمة - أنه يقوم بظلم الناس ويعتدي عليهم:

[لازم أبطال "أوروك" حجراتهم متذمرين شاكين:
لم يترك جلجامش ابناً لأبيه
ولم تنقطع مظالمه عن الناس ليل نهار
ولكن جلجامش هو راعي "أوروك"، السور والحمى
إنه راعينا: قوي وجميل وحكيم

---

١. صموئيل كريمر، السومريون: ٢٥٨.
٢. أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ٣٧٢.

لم يترك جلجامش عذراء لحبيبها ، ولا ابنة المقاتل ولا خطيبة البطل .....] [١].

د. كريمر وفق فهمه للنص يرى أنّ "جلجامش" (كان مطلق العنان، اضطهد سكان مدينته وسامهم العذاب. وكان أشد مطالبه ظلماً وبشاعة تعسفه وإشباع شهواته ولذاته الجنسية) [٢].

ومثله د. نائل حنون: (ثم يأتي النص على ذكر وطأة جلجامش على أهل أوروك وإرهاقه لهم في الحروب والأعمال الكثيرة ...) [٣].

وبالرغم من أنّ فراس السواح حاول تبرير الظلم والاعتداء، لكن محاولته غير مجدية؛ لأنه بعد اعترافه بأنّ ما صدر من "جلجامش" ظلم وشذوذ - بحسب فهمه - إذن فتبرير فعله لا يرفع عنه صفة الظلم والاعتداء حقيقة:

(... وسلوك الرجل الحكيم إن شذ ما شذ عن طيش أو هوى، بل عن بحث وتساؤل ومحاولة فهم وكشف) [٤].

كان الأولى بهؤلاء الباحثين وغيرهم أن يعترفوا بأنّ فهمهم هذا يتناقض تماماً مع النص المتقدم المعرِّف بجلجامش، وإلا فكيف لشخص عالم حكيم وعارف بكل شيء أن يظلم رعيته ويعتدي على أعراضهم من أجل إشباع رغباته ؟! وماذا أبقى للحاكم الدكتاتوري المتسلّط الظالم إذن ؟!!

يقول السيد أحمد الحسن:

(من غير المعقول - كما فهم بعض المختصين بالحضارة السومرية - أن يكون المقصود بهذه المقاطع اعتداء جلجامش على أعراض الناس أو ظلمهم، وإلا لكانت الملحمة متناقضة تماماً، فجلجامش وصُف في بدايتها بأرقى ما يمكن أن يُوصَف به

---

١. طه باقر، ملحمة جلجامش: ٣٩.

٢. صموئيل كريمر، من ألواح سومر: ٣٠٦.

٣. نائل حنون، ملحمة جلجامش: ٣٣.

٤. فراس السواح، قراءة في ملحمة جلجامش: ٢٤٢.

حاكم عادل، بل في نفس هذه الأسطر وصف بأنه حكيم، فكيف يعتدي ملك حكيم على أعراض رعيته ويظلمهم ؟! ثم إنّ الجزء الآتي من الملحمة سيصف جلجامش بوصف مثالي، مثل: الإيثار والشجاعة والإخلاص، ولهذا فهكذا نصوص إما أن تكون تحريفاً مقصوداً حُشِر في النص، أو إنها رمزية وبالتالي تحتاج إلى تأويل وبيان) [١].

إنّ قصدية تحريف النص يمكننا تفهّمه اذا ما عرفنا أنّ الملحمة تعد نتاجاً دينياً تحكي قصة شخصية دينية مقدسة، وليس نتاجاً أدبياً صرفاً كما سبقت الإشارة لذلك، كما أنّ التأويل ممكن وفق ما انتهينا إليه من أنّ "جلجامش" مخلّص ومنقذ للنوع الإنساني من حيوانيته التي تحول بينه وبين الرقي والتكامل.

(وإذا قرأنا النص بتدبر سنجد أنّ المراد هو منقذ النوع الإنساني من حيوانيته، منقذ النوع الإنساني الذي رافقت قصته كلَّ الأُمم، لأنّ الذين يسبقون زمن بعثه إذا لم تكن أُممهم مهيّأة لاستقباله فعلى الأقل هناك أفراد في تلك الأُمم يمكن أن تنقذهم قصته التي يتداولونها، إنه الشخص الذي سيربطهم بالله وسيفتح باب السماء ليسمع كل من يريد أن يسمع وحياً عظيماً يُعَرِّفُه بالحقيقة فيشغف بها، الحقيقة التي أظهرتنا من العدم، الحقيقة التي خُلقنا لنعرفها، ولهذا فهو سيشغل الجميع بالله وليس بشخصه هو؛ لأنه لو شغلهم بنفسه أو تركهم ينشغلون به دون أن ينبههم فلن يكون هناك فرق بينه وبين أي طاغية ظالم يريد الشهرة والسمعة.

الآن، يمكننا أن نفهم جيداً لماذا "لازم أبطال أوروك حجراتهم متذمرين شاكين"، ولماذا "لم يترك جلجامش ابناً لأبيه ..... ولم يترك جلجامش عذراء لحبيبها ولا ابنة المقاتل ولا خطيبة البطل"، لأنهم جميعاً شُغِفوا بالله وتعلّقوا به سبحانه، جاء جلجامش المخَلِّص وفتح لهؤلاء المخَلَّصين، الذين سيكونون في زمنٍ معيَّن، بابَ وحي عظيم وعلّمهم كيف يتعلّقون بالله وكيف يحبون الله وكيف يسمعون الله في كل شيء) [٢].

---

١. أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ٣٧٥ - ٣٧٦.

٢. المصدر نفسه: ٣٧٦.

"جلجامش" لا يريد أن يصحبه من له تعلّق بغير الله، ولذلك فهو لم يقرّب إليه من المقاتلين غير من كان "أعزباً" (إشارة إلى أنه ليس له تعلق بالدنيا أو أي شيء يصرفه عن الله):

[إن من اقتلع الأرز ؛ كان يغمره السرور ؛
السيد "جلجامش" غمره السرور ؛
وعبّأ (رجال) مدينته كرجل واحد ؛
وحشّد (رجالها) كرفيقين توأمين ؛
من كان يملك بيتاً ؛ فليعد إلى بيته !
ومن كان له أم ؛ فإلى أمه !
وليقف الذكور من العزاب الذين سيفعلون ما أفعل إلى جنبي !
من كان يمتلك بيتاً ؛ (عاد) إلى بيته !
ومن كان له أم ؛ (عاد) إلى أمه !
ووقف خمسون من العزاب من الذين كانوا سيفعلون ما يفعل إلى جانبه] [١].

أعتقد جازماً إنّ أيَّ قراءة يمكنها أن تحفظ للنصوص والملاحم المهمة وحدتها وانسجامها بشكل يليق بخلودها وشغف الأمم بها منذ العصور الغابرة، كملحمة جلجامش في بحثنا، لهي أولى بالقبول من التي تسلب نصوص الملحمة الخالدة الانسجام والتناسق بين مضامينها، ولا أعتقد أنّ باحثاً منصفاً يخالفني في هذه النتيجة.

٣- جلجامش ثلثاه إله وثلثه بشر:

لعل واحدة من الأسباب التي دفعت بعض الباحثين إلى اعتبار "جلجامش" شخصية أسطورية هي الصفات والإشارات "الخارقة" التي وصف بها في نصوص الملحمة، والتي لم يتمكنوا من حل شفرتها وفهمها بشكل صحيح ينسجم مع الشخصية الإنسانية الحقيقية، كصفة "ثلثيه إله وثلثه الآخر بشر":

[فنادى "الرجل العقرب" زوجته وقال لها:

١. صموئيل كريمر، السومريون: ٢٦٩.

إنّ الذي جاء إلينا جسمه من مادة الآلهة ،
فأجابت زوجة "الرجل العقرب" زوجها وقالت:
أجل إنّ ثلثيه إله وثلثه الآخر بشر ، ...] [١].

بعض الباحثين الذين يعتقدون بأنّ "جلجامش" شخصية حقيقية تاريخية حكمت الوركاء أيضاً لم يستطيعوا أن يقدّموا فهماً مقبولاً لهذه الإشارة، فهم بين من تجاهلها أصلاً ولم يذكر عنها شيئاً، وبين من أرجعها إلى الإرث النسبي الذي حظي به "جلجامش" من جهة أمه "ننسون".

(تجعل النصوص السومرية من جلجامش ابن للإلهة "ننسون" زوجة الملك لوجال بندا، إلا أن أبا جلجامش لم يكن لوجال بندا، بل كاهن غامض يلقب بالكاهن الأعلى لمنطقة كولاب، وهي من أعمال أوروك. من هنا جاءت الإشارة إلى جلجامش على أنه مزيج من إله وبشر) [٢].

هذا، مع أنّ الإشارة المذكورة - أيّاً كان معناها - واضح أنها تضفي كمالاً على شخصية "جلجامش"، ومعلوم أنّ الكمال والرقي الإنساني لا ربط له مطلقاً بالنسب ومكانة الأم أو الأب، وإنما له علاقة بسعي الإنسان وجدّه وإخلاصه هو لا غير.

إذن، ما معنى أن يكون ثلثا جلجامش إله وثلثه المتبقي بشر؟

الجواب: يمكننا فهم هذا "الرمز" اذا استحضرنا قصة خلق الإنسان السومرية، حيث تقدم أنّ نصوص السومريين تفيد بأنّ الإنسان خُلق على "صورة المعبود"، وهو معتقد توحيدي أصيل وصحيح حتى وفق نظر الديانات الإلهية اللاحقة. وكون الإنسان مخلوق على "صورة الله" يعني بالضرورة أن تكون فطرته هي الأوسع والأكبر من بين بقية الخلق "فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ" [٣]، هذا يعني أنّ بوسع الإنسان أن يتخلّق بأخلاق الله ويكون مظهراً ومرآة تتجلّى فيه الصفات الإلهية كالعدل والعفو

١. طه باقر، ملحمة جلجامش: ٧٥.
٢. فراس السواح، قراءة في ملحمة جلجامش: ٢٨ - ٢٩.
٣. سورة الروم، آية ٣٠.

والرحمة والكرم والعلم والحكمة... الخ بشكل واضح وكبير، وحينئذٍ سيغطي النور مساحة أكبر في وجوده بحسب نسبة التجلي والإظهار، والعكس صحيح أيضاً أي يمكنه أن يترك ذلك ويدس فطرته في التراب فتتسع مساحة الظلمة في وجوده بكل تأكيد،

ونحن لما عرفنا أنّ "جلجامش" ملك إلهي عادل وعالم عارف وحكيم، فأكيد أنّ نسبة النور في وجوده أكبر من الظلمة لذا كان ثلثاه "إله"،

(جلجامش الشخصية المقدسة عند السومريين أو الأكاديين (البابليين - الآشوريين) وكثير من شعوب العالم القديم يوصف بدقة في ملحمة جلجامش (ثلثان منه إله وثلثه الباقي بشر)، أي أنّ النور في وجوده غالب على الجانب المظلم أو الأنا، ولكنه يبحث في النهاية عن سرِّ الخلاص النهائي من هذه الظلمة، ...) [١].

وبقدر تعلق الأمر بالباحثين المختصين في النصوص السومرية، فمن الطبيعي جداً أن يكون حل هكذا نصوص مرمّزة أمر في غاية الصعوبة بالنسبة لهم؛ نتيجة ابتعادهم عن المنهج الصحيح في فهم النصوص الدينية،

٤- الصراع بين جلجامش وأنكيدو:

أمر آخر لم تفارقه الرمزية في ملحمة جلجامش، هو المعركة التي حصلت بينه وبين أنكيدو، حيث يرى أغلب الباحثين أنها عبارة عن عراك وشجار بالأيدي دار بينهما في طرقات "أوروك" ثم أعقبه فجأة صداقة بينهما صارت مضرباً للأمثال فيما بعد.

[وظل جلجامش وأنكيدو يتصارعان ....
وحينما ثنى جلجامش زكبته وقدمه ثابتة في الأرض (ليرفع أنكيدو)
هدأت سورة غضبه واستدار ليمضي
ولما استدار يريد الذهاب بعد أن هدأ غضبه كلمه أنكيدو قائلاً له:
إنك الرجل الأوحد ،

١. احمد الحسن، وهم الإلحاد: ٣٧٦.

أنت الذي حملتك أمك ،
ولدتك أمك ننسون .....
ورفع أنليل رأسك عالياً على الناس ،
وقدر إليك الملوكية على البشر] [١].

فهم د. كريمر من هذا النص وأمثاله أنّ قتالاً واشتباكاً بدنياً حصل بين الطرفين:

(فاشتبك البطلان العملاقان في القتال - "جلجامش" الحضري المتفنن، و"أنكيدو"، ابن السهول الساذج) [٢].

وغيره من الباحثين [٣] فهم ذلك أيضاً،

(في اللحظة التي يهم فيها جلجامش بالدخول إلى "بيت الأعراس" يسد أنكيدو بقدومه الباب فينشب الصراع بين البطلين ويتشابكان بالأيدي في الشارع) [٤].

لك أن تتصور أنّ "جلجامش" المقدس العادل، العالم والعارف والحكيم بحسب مطلع اللوح الأول للملحمة، يتصارع مع شخص في الطرقات بحسب لوح الملحمة الثاني، ولأجل ماذا ؟ لأجل أنه جاء ليحد من نزواته وظلمه لرعيته كما يفهم هؤلاء الباحثون ؟!!

لا أعتقد أنّ انسجاماً ونسجاً سليماً سيبقى قائماً بين نصوص الملحمة، بل ولا حتى أدنى وجوه الترابط لحفظ هيبة نص بحجم "ملحمة جلجامش" التي أبدى نفس هؤلاء الباحثين قبل غيرهم شدة انبهارهم بها !

---

١. طه باقر، ملحمة جلجامش: ٤٩ - ٥٠.

٢. صموئيل كريمر، من ألواح سومر: ٣٠٨، ترجمة: طه باقر.

٣. انظر على سبيل المثال: طه باقر، ملحمة جلجامش: هامش رقم (٣١ - ٣٢) ٤٩؛ فراس السواح، قراءة في ملحمة جلجامش: ص٢٤٨.

٤. د. نائل حنون، ملحمة جلجامش: ٣٨.

والأشد غرابة من ذلك، إنّ الصراع بين الطرفين بالرغم من احتدامه نراه يهدأ فجأة وينتهي معه كل شيء ما أثار دهشة الباحثين من أمثال د. كريمر الذي اكتفى بتبرير الهدوء بقوله:

(ولكن - لسبب لم يذكر في الملحمة - زال عن "جلجامش" غضبه وحدّته، فأخذ البطلان يتعانقان ويقبّل أحدهما الآخر) [١].

ليس هذا فقط، بل إنّ النص أعلاه يحكي لنا قول "أنكيدو" بعد هدأة الصراع مباشرة قائلاً لجلجامش بكل احترام:

[إنك الرجل الأوحد،
أنت الذي حملتك أمك،
ولدتك أمك ننسون .....
ورفع أنليل رأسك عالياً على الناس،
وقدر إليك الملوكية على البشر].

وإذا كان أنكيدو يعرف هذا ابتداءً فلماذا صارعه إذن ؟! إلا أن يكون الصراع الذي حصل بينهما من نوع آخر، وليس صراعاً بدنياً كما فهم أغلب الباحثين المختصين.

يقول السيد أحمد الحسن: (إذن، فمن غير المعقول أن يكون المقصود بتلك المعركة هو صراع بدني بين جلجامش وأنكيدو. نعم، يمكن أن نقول إنه صراع عقائدي أدى بأنكيدو أن يعترف في النهاية بأنّ جلجامش هو ابن ننسون وابن أنليل الذي أوصى أن يكون جلجامش ملكاً. ونطْق أنكيدو - بعد الصراع - بهذه الكلمات يُبيّن بوضوح أنّ أنكيدو يُقدِّس ننسون وأنليل، ولكنه لم يكن يُقرّ أنّ جلجامش من سلالتهم، والآن هو يُقر...) [٢].

١. صموئيل كريمر، من ألواح سومر: ٣٠٨.
٢. أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ٣٨١.

٥- رفض جلجامش الزواج من عشتار:

حدث مهم آخر من أحداث "ملحمة جلجامش" لفت أنظار الباحثين بقوة، هو رفض "جلجامش" الزواج من (أنانا - عشتار). فبعد عودة "جلجامش" من غابة الأرز وانتصاره في المعركة التي دارت بينه وبين الشيطان ورمز الشر والجور والفساد (خمبابا - هواوا) [١]، وبعد أن لبس تاجه عرضت عليه "عشتار" الزواج:

[ولما لبس جلجامش تاجه
رفعت "عشتار" الجليلة عينيها ورمقت جمال جلجامش فنادته:
تعال يا جلجامش وكن عريسي ،
وهبني ثمرتك أتمتع بها ،
كن زوجي وأكون زوجك ،
سأعد لك مركبة من حجر اللازورد والذهب ،
وعجلاتها من الذهب وقرونها من البرونز ،
وستربط لجرها شياطين الصاعقة بدلاً من البغال الضخمة ،
وعندما تدخل بيتنا ستجد شذى الأرز يعبق فيه ،
إذا دخلت بيتنا فستقبل قدميك العتبة والدكة ،
سينحني لك الملوك والحكام والأمراء ......
ففتح جلجامش فاه وأجاب عشتار الجليلة وقال: ....
أي خير سأناله لو تزوجتك ؟
أنتِ !
ما أنتِ إلا الموقد الذي تخمد ناره في البرد ،
أنتِ كالباب الناقص لا يصد عاصفة ولا ريحاً ،
أنتِ قصر يتحطم في داخله الأبطال ،
أنتِ فيل يمزق رحله ،
أنتِ قير يلوث من يحمله وقربة تبلل حاملها ،
أنتِ حجر مرمر ينهار جداره ،
أنتِ حجر يشب يستقدم العدو ويغريه ،

١. يمكن اعتباره رمزاً للشر والظلم والجور، انظر: أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ٣٨١؛ كريمر، من ألواح سومر: ٣٠٩. لكن بعض الباحثين اعتبر رحلة جلجامش لغابة الأرز تهدف - إضافة إلى نيل الشهرة والمجد - إلى البحث عن الحجر والخشب ! انظر: شارل فيروللو، أساطير بابل وكنعان: ٤٤ - ٤٥.

وأنتِ نعل يقرص قدم منتعله ،
أي من عشاقك من بقيت على حبه أبداً ؟
وأي من رعاتك من رضيت عنه دائماً ؟ .....
ولما سمعت عشتار هذا استشاطت غيظاً .....
يا أبي إن جلجامش قد عزرني وأهانني ،
لقد سبني وعيرني بهناتي وشروري ، ...] [١].

جواب جلجامش لـ "عشتار" وإهانته لها بهذه الصورة يكشف عن أنه - بحق - يخوض معركة أخرى جديدة لا تقل شراسة عن تلك التي خاضها مع الشيطان (خمبابا). والسؤال: لماذا رفض طلبها، بل وأهانها بشدة كما هو واضح في النص ؟

كثير من علماء السومريات مرّ على الموضوع بصمت، واكتفى ببيان رفض "جلجامش" طلب "عشتار" دون أن يشير إلى سبب الرفض، كما فعل د. كريمر [٢].

فيما عدّه البعض الآخر تمرّداً على الطبيعة التي ترمز لها "عشتار" بعد أن كان الإنسان خاضعاً لها طيلة عشرات ألوف السنين [٣]. لكنه لم يوضح سبب تمرّد جلجامش أيضاً، والمحاولة - بحسب ما أرى - مجرد إبدال "الرفض" بـ "التمرد" لا أكثر.

في حين اعتبر ثالث أنّ سبب الرفض هو الثقافة السائدة في مجتمع أوروك الذي كان "جلجامش" يتزعمه، فهو - بحسب صاحب هذا الرأي - مجتمع ذو نزعة ذكورية بامتياز تقوم على ثقافة دونيّة المرأة وإلصاق الفرية بها لحرقها اجتماعياً؛ منعاً لعودة المجتمع الأمومي الذي كان يسود سابقاً بحسب رأيه !

يقول د. حسين علوان: (ولكن دعوة عشتار لگلگامش بالزواج لا تلقى آذاناً صاغية منه، فلماذا ؟ ربما لأنها دعوة إلى العودة إلى سيادة المجتمع المشاعي الأمومي المفكك، وهذا ما يرفضه الملك گلگامش انسجاماً مع مصالح وأسس ثقافة المجتمع

---

١. طه باقر، ملحمة جلجامش: ٦٠ - ٦٣.
٢. صموئيل كريمر، من ألواح سومر: ٣٠٩.
٣. انظر: فراس السواح، قراءة في ملحمة جلجامش: ٢٦٠.

الرجولي الذي يترأسه، والقائم على فرية إلصاق كل العورات بالمرأة لـ "حرقها اجتماعياً" بتلويث سمعتها أو تلبيسها لبوس إبليس - مثلما يحصل في الصراع مع خمبابا - لمنعها من التسيّد اقتصادياً من جديد على حساب مجتمع أوروك الذكوري. ولا يمكن تصور وجود سبب مقنع آخر لرفض كلكامش الزواج بعشتار، خصوصاً إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن عشتار إلهة قوية، وأن كلكامش ليس إلا ثلث إله، وأن زواجه منها يمكن أن يهبه الخلود الذي ينشد. ولكن الملحمة لا تتحدث بالقلم العريض هنا، وتكتفي بالترميز الملحمي، وإن كانت تنوه تلفيقاً إلى خشية كلكامش من خيانة عشتار له (مثلما فعلت مع أزواجها السابقين) وتدنيسها لجسده (كناية القير الملوث للبدن) وذلك ضمن ثقافة "دونية المرأة" التي تمارس حرية الاتصال الجنسي بالنسبة للرجل وارتباطها بالشر) [١].

د. علوان واضح أنه تعثر في أولى خطواته عندما وصف "عشتار" بوصف الأنثى الحقيقية وبالتالي حمّلها تبعات نظرة المجتمع الأوروكي للمرأة (إن كان فعلاً كما ذكر)، مع أنّ صفات "عشتار" في النصوص لا تنطبق على الأنثى الحقيقية نهائياً، وقد فهم ذلك الكثير من الباحثين المختصين فهي بنظرهم ترمز إلى الطبيعة أو الخصب الموجود فيها بالتحديد، وقد تقدم البحث في ذلك.

كما أنّ فرية إلصاق التهم بالمرأة التي يتحدث عنها إن افترضنا شيوعها في المجتمع الأوروكي عموماً، لكن كيف يمكن توقع انحدار شخصية بحجم "جلجامش" لمثل هذا الخلق المشين الظالم وهو الرجل العادل العالم والحكيم العارف بأسرار كل شيء ؟!! أقل ما يقال عن هكذا طرح إنه يجعل من نصوص الملحمة متناقضة ومتضاربة فيما بينها.

على أنّ النظرة الدونية للمرأة التي يتصورها د. علوان جزافاً نحن نرى عكسها تماماً، ولا أقل بالنسبة لجلجامش، فها هو يفتخر بأمه "ننسون" المرأة المقدسة بل ويعتز بانتسابه لها، كيف وهي إحدى علاماته المعرّفة بشخصيته الحقيقية، كما وصفه صديقه أنكيدو بذلك "ولدتك أمك ننسون" أمام الجميع.

---

١. د. حسين علوان حسين، الصراع في ملحمة جلجامش - قراءة في جدلية الملحمة.

ولا أريد هنا مناقشته فيما طرحه بخصوص المجتمع الأمومي "المشاعي" على حد قوله، بافتراض أنه الخطوة الأولى التي خطتها البشرية قبل الانتقال إلى المجتمع الذكوري لاحقاً بعد اكتشاف الزراعة، فهي مجرد فرضية قائمة على حجج واهية ولا تستند إلى أساس علمي رصين.

وبالنسبة لنا، فإنّ سبب رفض "جلجامش" عرض الزواج الذي تقدمت به "عشتار" واضح جداً، فقد تقدم البحث في تحديد هوية (أنانا - عشتار) وما ترمز إليه في النصوص السومرية، وعرفنا أنّ صفاتها تنطبق تماماً على (الدنيا) التي رفض دموزي (الابن الصالح) السجود لها فعاقبته وأسلمته للذبح في مأساة فظيعة، وها هو "جلجامش" السائر على نفس النهج الإلهي يرفض السجود والانقياد لها ولزخرفها وشهواتها الخادعة، فرجل عالم وحكيم وعارف بالأسرار مثله هيهات أن يُخدع وينقاد لدار هويتها الزوال والفناء والغدر والخيانة.

٦- موت أنكيدو أو تعثره في مسايرة رفيقه:

لأن أغلب الباحثين يعتبرها نصاً أدبياً، فقد مثّل لهم موت "أنكيدو" ودفنه وحزن "جلجامش" عليه في نص الملحمة البابلية نهاية دراماتيكية تبلغ بالقصة مرحلة الذروة في إضفاء المأساة والحزن عليها.

لكن كبير الباحثين في النصوص السومرية يرى أنّ مشهد موت "أنكيدو" لم يكن أصله سومري وإنما هو إضافة حصلت من قبل البابليين لاحقاً. والموجود في النصوص السومرية أنّ "أنكيدو" تم احتجازه في العالم الأسفل نتيجة ارتكابه المعاصي ومخالفته أمر سيده "جلجامش".

يقول د. كريمر: (وأخيراً فإنّ قصة موت "أنكيدو" ودفنه هي على أرجح الاحتمالات من أصل بابلي غير سومري. فمبوجب القصيدة المعنونة "جلجامش وأنكيدو والعالم الأسفل" لم يمت "أنكيدو" موتاً بالمعنى المألوف للموت وإنما احتجزه

في العالم الأسفل "كور"، وهو ذلك الشيطان الموكل بالعالم الأسفل والشبيه بالتنين، لأنه ارتكب المحرمات الخاصة بالعالم الأسفل، وهو عارف بها) [(١)].

وهذا مقطع من القصيدة المشار لها:

[هبط أنكيدو إلى العالم السفلي ،
إلا أنه لم يلتزم بكلمات سيده -
ولبس ثياباً نظيفة ،
فهجم أصحاب السلطة عليه كأنهم أعداء ،
ومسح جسمه بزيت الكأس العذب ،
فتجمعوا من حوله من جراء رائحته ،
ورمى عصا الرماية في العالم السفلي ،
فأحدق به أولئك الذين أصيبوا بها ،
وحمل عصا بيده ،
فاضطربت أشباح الموتى من حوله
ولبس نعلاً في قدميه ،
وأحدث صوتاً في العالم السفلي ،
وقبل الزوجة التي أحبها ،
وصفع الزوجة التي كرهها ،
وقبل الابن الذي أحبه ،
وصفع الابن الذي كرهه ،
فأمسكت به صيحة العالم السفلي بقوة - ...
إنه لم يسقط في المعركة "مكان الرجولة"،
إن العالم السفلي هو الذي يمسك به بقوة] [(٢)].

لم يسقط "أنكيدو" ميتاً في معركة رجولية كتلك التي سقط فيها "دموزي"، إنما سقوطه وموته بمعنى احتجازه في العالم الأسفل "عالم الظلمة"؛ لأنه خالف وصايا سيده "جلجامش" وارتكب المحرمات والمعاصي، فالموت هنا هو موت الروح والقلب.

---

١. صموئيل كريمر، من ألواح سومر: ٣٢٣.

٢. صموئيل كريمر، السومريون: ٢٨٨ - ٢٨٩.

(وبما أنّ الخلود والموت المذكور في القصة يراد منه خلود وموت الروح، فيكون موت أنكيدو كذلك، فلم يتمكن أنكيدو من إتمام رحلة الخلود دون أن يسقط أو يتعثَّر في الطريق ويرتكب المحرمات ويخالف وصايا جلجامش له، فتكون النتيجة أنه سقط في براثن العالم الأسفل ويحاول جلجامش إنقاذه من براثن العالم الأسفل وإقامته من عثرته ...) [١].

٧- رحلة جلجامش لطلب الخلود:

سفر "جلجامش" إلى جده (زيو سو درا - أوتو نبشتم - نوح) لطلب الخلود يُعدّ أهم أحداث الملحمة، لكن أغلب الباحثين يرون أنه خلود مادي مقترن بالشهرة ودوام الذكر وما شابه.

(... لأن ما كان ينشده "جلجامش" ويتشوق إليه في حياته إنما هي الشهرة الدائمة والاسم الخالد وليس مجرد الوجود والحياة الطويلة الخالية من البطولة. ... إن الخلود المادي المحسوس هو الذي كان يعذب روحه التي حفزته رغبتها الملحة فيه إلى تحقيقه، فعليه أن يبحث ويجد سر الحياة الخالدة) [٢].

(وبعد كل ما قام به جلجامش وما كابده في رحلته عن الخلود عاد ليواجه الحقيقة التي ما كان يريد أن يواجهها، وهي أن البشر غير خالدين وأن الموت قدر لا مفر منه) [٣].

لكن هذا الموضوع - أعني كون الناس يموتون وأنهم غير خالدين في هذه الدنيا - أمر يعرفه جميع الناس فما بالك بالحكيم العارف بكل شيء والعالم بخفايا الأسرار، كما ورد وصفه في الملحمة !

---

١. أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ٣٨٥ - ٣٨٦.

٢. صموئيل كريمر، من ألواح سومر: ٣٠٨ - ٣٠٩.

٣. د. نائل حنون، ملحمة جلجامش: ٢٥٣.

ثم أوليس "جلجامش" نفسه من وصف لصديقه "أنكيدو" حال أهل الدنيا وأنّ أيامهم معدودات، فما معنى أن يتحمّل التعب والمشاق في رحلة يطلب فيها خلوداً جسمانياً يعرف مسبقاً بعدم تيسّره مطلقاً، وهل هذا إلا عبث، حاشى الحكيم الإلهي أن يفعله !

[وفتح جلجامش فاه وقال لانكيدو:
يا صديقي ، من الذي يستطيع أن يرقى أسباب السماء ؟
والآلهة (الصالحين) وحدهم هم الذين يعيشون إلى الأبد مع شمش ،
أما أبناء البشر فأيامهم معدودات ،
وكل ما عملوا هواء عبث] [(١)].

ربما لأجل ذلك، عمد بعض الباحثين - رغم اعترافه بأنّ سفر "جلجامش" إلى نوح كان رحلة سيكولوجية لا واقعية - إلى جرف الخلود إلى معنى آخر غير معناه المتعارف، فالخلود بنظره = أن يكون للحياة معنى، هكذا يرى فراس السواح:

(فجلجامش لم يكن باحثاً عن الخلود حقيقة، كما تؤكد معظم التفسيرات التي وضعت حتى الآن، بل كان باحثاً عن المعنى في الحياة، وعودته إلى أوروك في النهاية لم تكن هزيمة للإنسان أمام هدف محكوم سلفاً بالهزيمة، بل انتصاراً لحياة وجدت المعنى فيها والغاية) [(٢)].

لكن إذا كان كل همّ "جلجامش" من رحلته المضنية أن يكون لحياته معنى فلماذا سفره إلى (اوتو نبشتم - نوح) بالذات دون غيره، مع علمه بأنه ميت منذ زمن بعيد، وعلمه بنفس الوقت أنّ موته الجسدي لم يمنعه من الاتصاف بصفة الخلود الذي تتصف به الآلهة ؟!

إنّ ما قدّمه أغلب الباحثين من فهم لمعنى الخلود الذي كان ينشده "جلجامش" لا يتناسب وشخصية عظيمة بحجمه كما هو واضح، لذا وجد بعضهم نفسه مضطراً

١. طه باقر، ملحمة جلجامش: ٥٣.
٢. فراس السواح، قراءة في ملحمة جلجامش: ٢٧١.

في أن يُبقي الباب مفتوحاً للزمن الذي ربما يجود بشعبٍ يُحسن بحث وتدقيق مسألة "الخلود" الذي أتعب "جلجامش" نفسه لنيله.

(إننا واثقون بأنّ شعوباً أخرى ستأخذ في يومٍ ما هذه المسألة - مسألة الخلود - وتوسعها بحثاً وتدقيقاً وربما أعطت جواباً يختلف تماماً عن جواب الجنية "سابيتو" [١] لجلجامش ملك "أوروك") [٢].

بحسب نص الملحمة، واضح جداً أنّ "جلجامش" ينشد خلوداً وحياة أبدية كتلك التي تتحلّى بها الآلهة ومُنحت لبعض البشر كنوح (عليه السلام)، نتيجة سببٍ ما مكّنه من الحصول على المفتاح والسر الذي استطاع بواسطته من أن ينقش اسمه في سجل تلك الحياة الخالدة، وما كان سفر "جلجامش" المتعب إلا لأجل أن يسأله عن كيفية الحصول على ذلك المفتاح، أن يحصل على سرِّ الخلاص من ثلثه البشري الذي أرهقه ليملأ النور صفحة وجوده وينقش اسمه في سجل الخلود والحياة الأبدية.

(... ربما أهم أسفار جلجامش في الملحمة هو سفره ليلتقي بجده نوح - أوتو نبشتم الخالد مع الآلهة ويسأله عن السرِّ الذي يمكنه أن يتخلَّص من ثلثه الإنساني ليخلد مع الآلهة كجده نوح (عليه السلام)، أو بعبارة أُخرى: ليُكتَب اسمه في سجّل الحياة الأبدية بجدارة ويكون من الخالدين روحياً، فالمسألة متعلقة بروحه، فثلثاه إله وأراد أن يجعل ثلثه الباقي كذلك، ولا علاقة للأمر بالخلود الجسماني كما توهم شرّاح الملحمة) [٣].

[لقد وجه السيد فكره نحو "أرض الأحياء"،
السيد "جلجامش" وجه فكره نحو "أرض الأحياء"،
فقال لخادمه "أنكيدو":
يا "أنكيدو"، إن الآجرة والختم لم يجلبا بعد النهاية المقدرة،

---

١. سابيتو: هي صاحبة الحانة في الملحمة التي دعت جلجامش إلى ترك سفره المضني والاهتمام بنفسه.
صاحبة الحانة: "كأنها رمز لسكر الناس بحب الدنيا والأنا" انظر: أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ص٣٩٠.
٢. شارل فيروللو، أساطير بابل وكنعان: ٥٦.
٣. أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ٣٧٣ - ٣٧٤.

أريد أن أدخل "الأرض" وأريد أن أخلد اسمي ،
في مواضعها التي أقيمت فيها الأسماء ، أريد أن أقيم اسمي ،
وفي مواضعها التي لم تقم فيها الأسماء ، أريد أن أقيم أسماء الآلهة] [١].

جلجامش يريد أن يسجل اسمه في سجل الحياة الأبدية: سجل الخالدين، والخلود - كما قال هو - غير متيسر لغير الآلهة ومن اصطفتهم من البشر، فهي إذن رحلة لطلب الخلود الروحي لا الجسماني، وهي رحلة إلى عالم آخر غير عالم الأجسام هذا؛ الذي لا تعدو حقيقته الفناء والزوال،

يقول السيد أحمد الحسن:

(وتبدأ رحلة جلجامش إلى جده نوح (أوتو - نبشتم) والتي يطلب فيها الخلود، خلود الروح وليس خلود الجسم، فجلجامش منذ البداية يعرف أن لا خلود للجسم، ... وجدّه نوح ميت منذ زمن بعيد، وهو يعلم هذا جيداً. إذن، هي رحلة إلى العالم الآخر.

وفي هذه الرحلة يسحق جلجامش نفسه، فيحقق الخلود الذي سافر في طلبه. يحقق مراده في نفس الرحلة وحتى قبل أن يصل إلى جده نوح (اوتو - نبشتم):

"سأطلق شعري وسألبس جلد الأسد وأهيم على وجهي في البراري".

ويدخل جلجامش عالم الحقيقة ويرى الأُمور على ما هي في رحلته إلى جده أوتو - نبشتم (نوح عليه السلام):

«لقد بلغ جبل "ماشو"
الذي يحرس كل يوم مشرق الشمس ومغربها ،
والذي يبلغ علوه سمك السماء
وفي الأسفل ينحدر صدره إلى العالم الأسفل ،
ويحرس بابه "البشر العقارب"
الذين يبعثون الرعب والهلع ونظراتهم الموت

١. صموئيل كريمر، السومريون: ٢٦٧.

ويطغى جلالهم المرعب على الجبال ،
الذين يحرسون الشمس في شروقها وغروبها ،
ولما أبصرهم جلجامش اصفر وجهه خوفاً ورعباً ،
ولكنه تشجع واقترب أمامهم
فنادى "الرجل العقرب" زوجته وقال لها:
إنّ الذي جاء إلينا جسمه من مادة الآلهة ،
فأجابت زوجة "الرجل العقرب" زوجها وقالت:
أجل إنّ ثلثيه إله وثلثه الآخر بشر ،
ثم نادى "الرجل العقرب" جلجامش
وخاطب نسل الآلهة بهذه الكلمات:
مالذي حملك على هذا السفر البعيد ؟
وعلام قطعت الطريق وجئت إلي عابراً البحار الصعبة العبور ،
فأبن لي القصد من المجيء إلي
فأجابه جلجامش قائلاً:
أتيت قاصداً أبي (اوتو - نبشتم) (نوح)
الذي دخل في مجمع الآلهة *
جئت لأسأله عن لغز الحياة والموت *
ففتح الرجل العقرب فاه وقال مخاطباً جلجامش:
لم يستطع أحد من قبل أن يفعل ذلك يا جلجامش
لم يعبر أحد من البشر مسالك الجبال
حيث يعم الظلام الحالك في داخلها مسافة اثنتي عشرة ساعة مضاعفة ولا يوجد نور
..... جزء مخروم من الملحمة .....
فأجاب جلجامش: عزمت على أن أذهب ولو بالحزن والآلام *
وفي القر والحر وفي الحسرات والبكاء *
فأفتح لي الآن باب الجبال ،
ففتح الرجل العقرب فاه وأجاب جلجامش:
مر يا جلجامش ولا تخف ،
فقد أذنت لك أن تعبر جبال "ماشو" ،
وعساك أن تقطع الجبال وسلاسلها ،
وعسى أن تعود بك قدماك سالماً ،

وها هو باب الجبل مفتوح أمامك »[١]) [٢].

"جلجامش" حارب "الأنا" ببسالة عالية جداً، وكان مستعداً أن يهيم على وجهه في البراري دون تحقيق هدفه المتمثل بـ "الخلاص والخلود" الذي ينشده في درس بليغ يضعه بين يدي الإنسانية جمعاء إذا ما أرادت الكمال والرقي والحياة الأبدية.

لم يثنِ عزيمته قول صاحبة "الحانة" (تمثل سكر الناس بحب الدنيا والأنا) التي صادفها في سفره ودعوتها إيّاه إلى الراحة والدعة والاهتمام بنفسه وترك سفره المضني والشاق:

[فأجابت صاحبة الحانة جلجامش قائلة له:
إنّ الحياة التي تبغي لن تجد
إذ لما خلقت الآلهة البشر قدرت الموت على البشرية
واستأثرت هي بالحياة *
أما أنت يا جلجامش فاجعل كرشك مملوءاً *
وكن فرحاً مبتهجاً ليل نهار *
وأقم الأفراح في كل يوم من أيامك
وارقص والعب ليل نهار *
واجعل ثيابك نظيفة زاهية *
واغسل رأسك واستحم في الماء *
ودلل الطفل الذي يمسك بيدك *
وافرح الزوجة التي بين أحضانك *
وهذا هو نصيب البشر ،
ولكن جلجامش أردف مخاطباً صاحبة الحانة:
يا صاحبة الحانة أين الطريق إلى اوتو - نبشتم
دليني كيف أتجه إليه ؟
فإذا أمكنني الوصول إليه فإنني حتى البحار سأعبرها ،
وإذا تعذر الوصول إليه فسأهيم على وجهي في البراري][٣].

---

١. طه باقر، ملحمة جلجامش: ٧٥ - ٧٦.
٢. أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ٣٨٧ - ٣٩٠.
٣. طه باقر، ملحمة جلجامش: ٧٩ - ٨٢.

والآن، من أراد أن يعرف سرّ الحياة والخلود ويكتب اسمه في سجل الحياة الأبدية فليقتدي بجلجامش "المنقذ والمخلّص" ويتبع خطواته ويقترب من صفاته وإخلاصه وهمّته وهيامه الذي انطوت عليه نفسه في سفره. إنه سفر شاق ومتعب بطبيعة الحال، يفترض أن يتسلح الإنسان فيه بالعلم والحكمة والإخلاص والصبر والإيثار والعمل والتفاني للمبدأ والهدف الحق، ويتجاوز فيه "الأنا" المقيتة والرغبات الحيوانية التي تدعوه لها جيناته، ويقف من الدنيا وزخرفها والشيطان والظلم والشر والفساد موقف المحارب الذي في المقدمة، وبكلمة مختصرة: عليه أن يتخلق بأخلاق الله ليملأ النور صفحة وجوده، حينها يكون قد حظي بخارطة طريق الإنقاذ والخلاص من براثن العالم الأسفل وظلمته وهلاكه الأبدي ونال مفتاح الخلود والحياة الأبدية في العالم الآخر، ويكون بهذا قد تعلّم الدرس الذي جادت به سومر وابنها جلجامش للناس جميعاً منذ فجر الإنسانية المتحضرة.

خاتمة البحث:

خلص البحث إلى النتائج التالية:

١- حضارة سومر أولى الحضارات الإنسانية، التي عرفها الإنسان ووصله عطاؤها الفذ، لم تكن ذات أصول بدائية أرضية، وإنما كانت بصمة أنبياء سومر فيها واضحة، فتدخّل الدين الإلهي في حياة الإنسان السومري كان السر في حصول الطفرة الثقافية الحادة التي شهدتها بلاد ما بين النهرين، ولم يتمكّن علماء الآثار من تفسيرها.

٢- لم تعد "القضية السومرية" وبيان أصل السومريين معضلة بعد اليوم، بعد أن تمكّن السيد أحمد الحسن من حل لغزها من خلال شفرة "ذوي الرؤوس السود" التي ألقت بظلالها على بيان أنّ أصل الإنسان يعود إلى أفريقيا قبل أن يضطر إلى تركها ونزوح مجموعة منتقاة من البشر باتجاه الوادي الخصب (الخليج الحالي) وهم أسلاف السومريين أو السومريون الأوائل، ثم نزحوا منه إلى جنوب العراق بعد الطوفان الكبير، وهو أمر تؤكده الحقائق العلمية على مستوى علم الوراثة والجينات والجيولوجيا والفيزياء المناخية بثقة عالية.

٣- ليس من الإنصاف العلمي في شيء وصف نتاج سومر بالأساطير، بعد أن كانت معارف البشرية (دينياً وعلمياً) ترجع في أصولها إلى سومر. وبالنسبة إلى تبنّي مثل هذا الموقف من قبل رجال الدين بالتحديد فقد ساهم بتقديم هدية مجانية للإلحاد لضرب الدين الإلهي في الصميم بعد ثبوت رجوع الأديان السماوية الثلاثة إلى سومر، فلم يعد بوسع من يحترم عقله إنكار مدى التشابه الكبير والقطعي بين مضامين نصوصها - أي الأديان الثلاثة - وبين النصوص السومرية كما رأينا. وعلى العكس من ذلك، فإنّ عطاء سومر العلمي والثقافي والمثل العليا عموماً التي جادت بها تدل على وجود جهة منظمة وعالمة تقف وراءها، وبهذا فهي تثبت وجود الله.

٤- البحث أوضح أنّ لدى السومريين ديناً إلهياً متكاملاً بمنظوماته العقائدية والتشريعية والأخلاقية. فعلى مستوى العقيدة اتضح أنّ السومريين يؤمنون بإله واحد، ومشكلة تعدّد الآلهة في نصوصهم تمت إجابتها، وأيضاً يؤمن السومريون بمبدأ حاكمية الله وتنصيبه للحاكم. نعم، دينهم الإلهي طاله التحريف فقد يُضفون صفة الألوهية على جهة باطلة أو ينحّون الحاكم الإلهي المنصّب وينصّبون غيره كما حصل ويحصل دائماً في مسيرة الأديان الإلهية عموماً.

٥- كشف البحث عن الأهمية القصوى التي تحظى بها "الرمزية" في نصوص سومر، فشخصية "دموزي" وهوية "أنانا" وما يرتبط بها من عقيدة الخصب وبدعة الزواج المقدس ومأساة دموزي والنواح عليه والعالم الأسفل ونحو ذلك، التي أخطأ في تحديدها الباحثون، تمكنّا من تصويرها بنحو آخر غير متداول بين الباحثين اعتماداً على الرؤية الجديدة التي قدّمها السيد أحمد الحسن، وانتهينا إلى تحديد شخصية دموزي ومقامه ونسبه ودوره وسبب النواح عليه وما يتصل به مما خصّته به النصوص السومرية بشكل أكثر منطقية.

٦- مثل ذلك أيضاً حصل مع الشخصية السومرية الأخرى التي تناولها البحث، وهي "جلجامش" كما ورد ذكرها في ملحمته الشهيرة، فالرمزية - أيضاً - ألقت بظلالها عليه، وأخفق الباحثون مرة أخرى في تفسير الملحمة وتحديد هوية بطلها وكذلك في بيان الأحداث والرموز المفصلية المذكورة فيها، مثل: كون ثلثيه إله وثلثه بشر، وصراعه مع أنكيدو، ورفضه الزواج من عشتار، وموت أنكيدو أو تعثره في مسايرة رفيقه، وسفر جلجامش إلى جده اوتونبشتم، ونحو ذلك. وبعكس ذلك، فإنّ الرؤية الجديدة التي قدّمها السيد أحمد الحسن حدّدت هوية البطل وصفاته ومقامه ودوره كمنقذ ومخلص سومري موعود، وأيضاً فسّرت الأحداث والرموز الوارد ذكرها في الملحمة بطريقة حفظت للنص وحدته وهيبته وانسجامه الذي فقده تماماً وفق الرؤية التي تعاطى بها الباحثون معه.

البحث إذن عرض رؤيتين لـ "سومر"، تلتقيان في محاولة كل منهما تقديم فهم لنفس النصوص، لكنهما تختلفان تماماً في النتائج المترتبة على ضوء كل منهما.

رؤيتنا التي أوضحناها في البحث كانت بصمة أنبياء سومر كنوح وإبراهيم واضحة في نتاج السومريين الحضاري والثقافي.

ختاماً، يقول السيد أحمد الحسن:

(الملاحم والقصص السومرية والقصائد تُثبت أنّ قصة الدين الإلهي موجودة ومكتملة عند السومريين بكل جزئياتها وشخصياتها ورموزها قبل الديانة اليهودية والمسيحية والإسلامية، فنجد في الرِقَم الطينية السومرية الإله الحقيقي الواحد المهيمن على كل شيء، ونجد عندهم العقائد، والقيم الأخلاقية، والنواميس المقدسة، والعبادة وطرقها، وسبل الانتصار على الشيطان وعلى الدنيا وعلى الأنا وحب الذات.

إذن، فهو الدين كلّه من ألفه إلى يائه عند السومريين. فمن أين أتوا به ؟

من أين جاءوا بهذه المنظومة المعقّدة التي ظهرت مكتملة فجأة في تاريخ بلاد ما بين النهرين ؟

الحقيقة التي يراها كلُّ عاقلٍ ظاهرةً كالشمس أنّ هناك قفزة ثقافية وحضارية أظهرتها لنا الثقافة والحضارة السومرية، فمن يريد أن ينكر - بعد كل ما تقدم - فهذا شأنه، وعموماً فقد وضِعتْ أُطروحات ونظريات لتفسير هذه القفزة الثقافية، ولو كان الأمر ليس كذلك لما وصل الأمر إلى أن توضع نظرية قدوم كائنات من الفضاء !!

والعجب كل العجب ممّن يقبل أنّ سبب تطور الإنسانية هو قدوم كائنات فضائية بمركباتهم وقدراتهم الكونية التي لا نرى لها أثراً على الأرض لكي يُعلِّل هذه القفزة الثقافية، ولا يقبل أنّ نفس آدم نُفخَتْ في جسم فتطوّر وانتقل إلى مستوى أرقى في الخلق والتنظيم والقدرة على التفكير والإدراك) [١].

والحمد لله رب العالمين، وسلامٌ على عباده المرسلين.

---

١. أحمد الحسن، وهم الإلحاد: ٢٩٢ - ٢٩٣.

مصادر البحث

١- القرآن الكريم.

٢- الكتاب المقدس.

٣- نهج البلاغة، تحقيق: صبحي الصالح.

٤- الكليني، الكافي، تعليق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية - طهران، ط٣.

٥- القاضي المغربي، دعائم الإسلام، تحقيق: آصف فيضي، دار المعارف - مصر، ١٩٦٣.

٦- المجلسي، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء - بيوت، ط٢، ١٩٨٣.

٧- الطبري، تاريخ الأمم والملوك، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت.

٨- أحمد الحسن، وهم الإلحاد، شركة نجمة الصباح - بغداد، ط٢، ٢٠١٧.

٩- أحمد الحسن، عقائد الإسلام، شركة نجمة الصباح - بغداد، ط١، ٢٠١٦.

١٠- أحمد الحسن، كتاب التوحيد، شركة نجمة الصباح - بغداد. ط١.

١١- أدونيس، ديوان الأساطير، تعريب وتعليق: قاسم الشوّاف، دار الساقي - بيروت، ط١، ١٩٩٦.

١٢- حسين علوان حسين، الصراع في ملحمة جلجامش - قراءة في جدلية الملحمة.

١٣- خزعل الماجدي، أنبياء سومريون، المركز الثقافي للكتاب - المغرب، ط١، ٢٠١٨.

١٤- خزعل الماجدي، متون سومر، الأهلية للنشر والتوزيع، لبنان، ط١، ١٩٩٨.

١٥- ديلا بورت، بلاد ما بين النهرين، ترجمة: محرم كمال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧.

١٦- سيتون لويد، آثار بلاد الرافدين، ترجمة: محمد طلب، دار دمشق، ط١، ١٩٩٣.

١٧- شارل فيروللو، أساطير بابل وكنعان، تعريب: ماجد خيربك، ١٩٩٠.

١٨- صموئيل نوح كريمر، من ألواح سومر، ترجمة: طه باقر، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر،

١٩- صموئيل نوح كريمر، السومريون، ترجمة: د. فيصل الوائلي، مكتبة الحضارات - بيروت، ط١.

٢٠- صموئيل نوح كريمر، الأساطير السومرية، يوسف داود عبدالقادر، مطبعة المعارف - بغداد، ١٩٧١.

٢١- صموئيل نوح كريمر - دايان ولكشتاين، إنانا ملكة السماء والأرض، ترجمة: شاكر الحاج مخلف، خطوات للنشر والتوزيع - دمشق، ط١، ٢٠٠٧.

٢٢- صموئيل نوح كريمر، هنا ابتدأ التاريخ، ترجمة: ناجية المراني، منشورات دار الجاحظ للنشر - بغداد، ١٩٨٠.

٢٣- صموئيل نوح كريمر، طقوس الجنس المقدس عند السومريين، ترجمة: نهاد خياطة، مؤسسة رسلان، ٢٠١٧.

٢٤- طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، شركة دار الوراق للنشر المحدودة، ط٢، ٢٠١٢.

٢٥- طه باقر، ملحمة جلجامش، كتاب الكتروني، متاح على الإنترنت.

٢٦- فاضل عبدالواحد علي، من سومر إلى التوراة، سينا للنشر، ط٢، ١٩٩٦.

٢٧- فاضل عبدالواحد علي، عشتار ومأساة تموز، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع - دمشق، ط١، ١٩٩٩.

٢٨- فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، دار الكلمة، ط١١.

٢٩- فراس السواح، قراءة في ملحمة جلجامش، سومر للدراسات والنشر والتوزيع - قبرص، ط١، ١٩٨٧.

٣٠- علي شحيلات وعبدالعزيز الحمداني، مختصر تاريخ العراق - العصر السومري،

٣١- ك. ماتفيف وأ. سازونوف، حضارة ما بين النهرين العريقة، ترجمة: د. حنا آدم، مطبعة دار المجد - دمشق، ١٩٩١.

٣٢- نائل حنون، ملحمة جلجامش، دار الخريف للنشر والتوزيع - دمشق، ط١، ٢٠٠٦.

٣٣- موقع الكتروني / موقع الأنبا تكلا هيمانوت:
https://st-takla.org/books/helmy-elkommos/biblical-criticism/index٤b.html

٣٤- موقع الكتروني / مركز الأبحاث العقائدية:
http://www.aqaed.com/faq

٣٥- موقع الكتروني / صحيفة الانبدبندنت عربية:
https://www.independentarabia.com